مَصِيفُ العُلَماءِ

الطبعة الأولى
1442هـ-2021م

يا رحيم يا رحمن
اغفر لزايد بن سلطان

مصيف العلماء

كتابنا بفكرنا محفوظ وهو بعين نقدنا ملحوظ
والشرط فيه أبدا ملفوظ وحق طبعه لنا محفوظ

الطبعة الأولى
1442هـ-2021م

حقوق الطبع محفوظة
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
الإمارات العربية المتحدة

" تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي
تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف
العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام "
التصنيف العمري E

تمت الموافقة عليه من قبل
المجلس الوطني للإعلام رقم :
MC-03-01-6887782
ISBN : 1234567890000

المتحدة للطباعة والنشر
أبوظبي - الشهامة القديمة -

المحتويات

المقدمـــة 05

التلاقح المعرفي في أسفار العلماء: صور ونماذج 09

القيم في السيرة النبوية 19

مصايف العلماء فرصُ استفادةٍ واستدامةٍ واستزادة 37

مصايف العلماء: أسس ونماذج 47

الرحلات الصيفية لعلماء الإسلام 53

الإمام مالك: مذهبه الفقهي ومنهجه الأصولي 65

لطائف العلوم في مصايف النجوم 81

الخاتمة 89

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا يخفى على أحد أهمية الوقت واستغلاله في حياة الناس عموما، ويحتاج الأمر إلى تفصيل أدق إذا ارتبط الحديث عن الوقت بالعلماء وطلاب العلم، لأنه بالنسبة إليهم هو رأس المال الذي يُتاجر به ويُرابح.

ومن هذا المنطلق جاءت الفكرة لتوجيه اهتمام الباحثين وأنظارهم إلى هذا الموضوع الذي لا يحوزه مجال، ولا يربطه مكان أو زمان، فبادرت جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية إلى تنظيم برنامج ثقافي بعنوان: "مصايف العلماء"، للتعريف بأفضل الطرق التي اتبعها العلماء قديماً وحديثاً لاستثمار أوقات الفراغ في أيام العطل والصيف، ويُعدُّ هذا البرنامج أول برنامج صيفي على صعيد الجامعات بُثَّت حلقاته عبر حسابات الجامعة على مواقع التواصل الاجتماعي، ولقي تغطية إعلامية واسعة، ولذلك فقد ارتأت الجامعة أيضاً أن تُنشر أبحاث هذا البرنامج وَرَقياً حتى تتسع دائرة الاستفادة من الأبحاث المعروضة فيه، وتَعُمَّ فائدته على أوسع نطاق.

وقد أسهم في هذا البرنامج الجامعي عدد من أساتذة جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، وانتظمت محاوره وفق الآتي:

المحاضرة الأولى: "مصايف العلماء: أسس ونماذج"، ألقاها فضيلة الدكتور الجيلالي المريني، بيَّن فيها الأسس التي تحكم العلماء وتؤطر اشتغالهم بالعلم طول حياتهم بدون كلل أو ملل، كما حرص على ذكر أمثلة لامعة من العلماء والمفكرين الذين عاشوا حياتهم في تقصي العلم والبحث عن مصادره في كل زمان ومكان.

المحاضرة الثانية: "القيم في السيرة النبوية"، للدكتور مصطفى عكلي، سعى من خلالها إلى البحث في جانب من جوانب القيم الإنسانية الاجتماعية مثل: التعارف، والإخاء، والإيثار، والمواساة، والتعاون، مع التدليل عليها من خلال أحداث ومواقف ثابتة في السيرة النبوية.

المحاضرة الثالثة: "الرحلات الصيفية لعلماء الإسلام"، للدكتور نورالدين شوبد، بيَّن من خلالها أنواع الرحلات عند العلماء وأنماطها، ونماذج منها. كما أشار إلى أن تلك الرحلات تختلف خصائصها بحسب الوجهة، والرفقة، والوقت المختار للرحلة صيفاً أو شتاءً.

المحاضرة الرابعة: "مصايف العلماء: فرصُ استفادةٍ واستدامةٍ واستزادةٍ"، للدكتور أحمد لكلمي، أبان فيها عن مجموعة من القضايا المرتبطة باستغلال العلماء لأوقات الصيف، وعاداتهم في ذلك، وأحاط بكلّ ما يتعلق بالمصايف من حيث مواقيتُ بدئها، والأماكنُ التي تُختارُ لها، وأنواعُ ما يُتَدَارَسُ فيها، وما يخصَّص لذلك من زُلَفِ اللّيلِ وأطرافِ النّهارِ.

المحاضرة الخامسة: "الإمام مالك: مذهبه الفقهي ومنهجه الأصولي"، للدكتور محمد الشيخ عبد الله، أراد من خلاله التذكير بدور هذا الإمام ومذهبه في تحصين مختلف المجتمعات في مشارق الأرض ومغاربها من الغلو والتطرف، وما تميز به من المرونة والاعتدال وسداد الاجتهاد في الأخذ بالأحكام الفقهية في مختلف النوازل المعروضة في الساحة الفقهية.

المحاضرة السادسة: "لطائف العلوم في مصايف النجوم"، للدكتور فهد الميموني، قدَّم لنا في هذا العمل رحلة علمية لاستكشاف المحطَّات التي عبرها عدد من أكابر العلماء في مسارهم العلمي، وذلك من خلال عرض نماذج لبعض الأقاليم والبلدان التي كان يقضي فيها عدد من العلماء مصايفهم ويستغلون فيها أوقاتهم، وهي: البصرة، ومكة، وخراسان، وقرية ماشهران بالري، وبغداد، وبسكرة.

المحاضرة السابعة: "التلاقح المعرفي في أسفار العلماء: صور ونماذج"، للدكتور أحمد غاوش، قصد من خلالها تَقَفِّي آثار العلماء في أسفارهم ورحلاتهم؛ ورصد طبيعة تلك الأسفار، وكشف ما تتميز به من جليل الخصائص والميزات، وتتبع مظاهر التثاقف التي شهدتها اللقاءات العلمية بين أهل العلم، وما نتج عنها من صور التلاقح المعرفي.

التلاقح المعرفي في أسفار العلماء: صور ونماذج

د. أحمد غاوش

مقدمة

عرف المسلمون منذ البواكير الأولى لحضارتهم السفر في طلب العلم، والتنقل خارج الأوطان لتحصيل المعارف، وترسخت في بيئتهم الثقافية والاجتماعية تقاليد عريقة في أدب الرحلة والتجوال في البلدان؛ طلبا للمعرفان.

وقد أثرى ذاك الأدبُ المكتبةَ التراثية بعشرات المؤلفات والمدونات التي وضعها أصحابها بغرض: تخليد مسارات أسفارهم، وتقييد فوائد رحلاتهم، وتسجيل غرائب مشاهداتهم، وتوثيق طرائف مروياتهم وإنشاداتهم...

ولقد صار عندهم الاغتراب عن الأوطان، ومفارقة الأهل والخلان، طريقا موصلة إلى تحقيق الإشباع العلمي، والامتلاء الفكري، وقد جسَّم هذه المعاني بدقة لافتة، ابن رشيد السبتي حين سمى كتابه السفري: "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة". فكانت الغيبة، والضرب بعيدا في أقطار الأرض؛ سبيلا لملء العيبة، وإذخار الوطاب بالعلوم والمعارف.

وذلك لأن أسفار العلماء، وتنقلاتهم في البلاد تختلف كثيرا عن نظيرتها عند غيرهم، فهم في الغالب منصرفون خلالها إلى ما شغلوا به أعمارهم من تحصيل العلوم، والتفتيش عن مصادرها، والتزود من مواردها؛ فهذا الرحالة ابن رشيد مثلا طوف البلاد شرقا وغربا، وأصحر في الجهات وأبحر، لم يكن من مطلوب له في كل بلد يحط به رحاله، إلا اللقاء العلمي بأهله؛ فقد "كان في كل مدينة يحل بها حريصا على الاتصال بعلمائها، والأخذ عن أشياخها، والتعرف على وجوه القوم فيها. واكتسب من ذلك علما واسعا وخبرة فائقة؛ فقرأ، وروى، وسمع أمهات التصانيف الحديثية، وكتب العربية، وجرت بينه وبين من زارهم من العلماء والأصحاب محاورات، ومناقشات علمية، ومطارحات ومساجلات أدبية وشعرية. فكان احتفاله بهذا الجانب في رحلته الطويلة مهيمنا عليه؛ بحيث لا تجده يصف المعالم والآثار، ولا يتحدث عن المنازل أو الديار ، إلا لماما وبقدر الحاجة، صارفا كل اهتمامه إلى ملاقاة الرجال، وزيارة العلماء والمحدثين والرواة وأصحاب الكتب في مجالسهم بالمساجد أو الدكاكين أو في دورهم ومنازلهم".[1]

1. ابن رشيد، السبتي، ملء العيبة (مقدمة المحقق محمد بلخوجة) (32/2).

وفي هذا البحث سنتقفي آثار علمائنا في أسفارهم ورحلاتهم المختلفة الأغراض؛ لرصد طبيعة تلك الأسفار، وكشف ما تتميز به من جليل الخصائص والميزات، ولتتبع مظاهر التثاقف التي شهدتها اللقاءات العلمية بين أهل الرحم العلمي، وما نتج عنها من صور المثاقفة، والتلاقح المعرفي.

والهدف من خوض هذا هذا الغمار، تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

1- تسليط الضوء على مظاهر التثاقف العلمي التي شهدتها أسفار العلماء في التراث الإسلامي.

2- رصد نماذج التواصل الثقافي، وأشكاله، وصوره من خلال السفر والرحلة.

3- التأكيد على قيم التواصل والتثاقف والتبادل العلمي من خلال الأسفار والرحلات.

4- الدعوة إلى ضرورة إحياء قيم تراثنا الإسلامي في هذا التعارف العلمي في زمننا المعاصر، سواء أكان ذلك ضمن المجال الإسلامي، أم المجال الإنساني العام.

وسيتركب البحث بعد المقدمة، من محور تمهيدي نقارب فيه مفهوم التلاقح المعرفي لغة واصطلاحا، ثم نثني بمحور رئيس مخصص لبيان صور التلاقح العلمي بين العلماء حال السفر، تعقبه خاتمة مركزة محتوية لأهم الخلاصات والنتائج.

أولا: مفهوم التلاقح المعرفي، ومدى الحاجة إليه

التلاقح مصدر صيغ على وزن التفاعل الدال في فن الميزان الصرفي على المشاركة في الشيء التي تكون من طرفين كل منهما فاعل من جهة، ومشارك بنصيب، لا مجرد مفعول به، أو متلق للتأثير بلا فعل...

ومن حيث المعجم، فالتلاقح مشتق من مادة (لقح) الدالة في استعمال العرب على جملة من المعاني، أكثرها ورودا واستعمالا معاني: التخصيب، والتأبير، والتسبب في الحياة للحيوان أو غيره.

قال الجوهري: "أَلْقَحَ الفحلُ الناقةَ، والريحُ السحابَ. ورياحٌ لَواقِحُ، ولا يقال مَلاقِحُ. وهو من النوادر. وقد قيل: الأصل فيه ملقحة ولكنها لا تُلْقِحُ إلا وهي في نفسها لاقِحٌ، كأن الرياح لَقِحَتْ بخيرٍ، فإذا أنشأت السحابَ وفيها خيرٌ وصلَ ذلك إليه. ولَقِحَتِ الناقةُ بالكسر لَقَحاً ولَقاحاً بالفتح فهي لاقِحٌ. واللَّقاحُ أيضاً: ما تلقح به النخلة".[2]

ومن المعاني الثانوية في وجوه الاستعمال العربي – انطلاقا من نص الصحاح - معنى الممازجة المؤثرة في الغير، ألا ترى أن فعل الفحل في أنثى الناقة مازجها، فنتج عن ذلك: الحبل والولادة.

2. الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 401).

وكذلك الحال في الريح التي نصوا على أنها لا تكون مُلقِحة إلا إذا كانت هي نفسها لاقحة ممتلئة خيرا؛ فينتج عن اتصالها بالسحاب هطول المطر ونزول الغيث.

وقد استعمل بعض الشعراء التلقيح بمعنى الممازجة المؤثرة في الطرف الآخر، فقال:

فقوما فأَلْقِحا خَمْرا بماءٍ *** فإن نتاجَ بينِهما السُرورُ

نتــاجٌ لا تدورُ عليه أمٌّ *** وحملٌ لا تُعدُّ له الشهورُ [3]

ومراده من الإلقاح هنا مزج المكونين مع بعضهما، فيحصل من ذلك الفعل نتاج يؤدي إلى شيء جديد، وهذا المعنى هو مقصودنا من استعمال لفظة التلاقح باعتبارها دالة على النتاج العقلي والفكري الناتج عن التقاء طرفين يشارك كل منهما بنصيب في إثارة الفكرة وتحفيز النظر.

وبعبارة أخرى، التلاقح المعرفي في هذا البحث معناه: ما يقع بين النخب العالمة من تشارك في الموارد العلمية بتجلياتها المختلفة عبر المثاقفة والتبادل العلمي، وخصائص التلاقح أن العلاقة فيه علاقة مشاركة في الإفادة والاستفادة الأخذ والعطاء.

فتكون النتيجة للأطراف كلها: توسيع المدارك، وتعميق للرؤى، وإثراء للفكر، عبر التبادل العلمي، والتثاقف الفكري الذي كانت إحدى أهم قنواته: السفر والترحال، والضرب في الأرض مشرقا ومغربا؛ طلبا للمعرفة، وسعيا في سبيل تحصيل العلوم، والتلقي المباشر عن العلماء، وحضور مجالسهم.

ثانيا: مظاهر التلاقح العلمي عبر السفر

تنوعت أشكال التلاقح التي شهدتها أسفار العلماء، وتعددت مظاهرها بحسب تعدد التجارب، وتواترها في الزمان، واتساع رقعتها في المكان، ويمكن التنبيه – في هذا المقام – على أهم مظاهرها:

1- المناظرات والمحاورات:

يعد تقليد المناظرة أحد أبرز مظاهر التثاقف والتلاقح المعرفي بين المختلفين مذهبيا، وقد شهدت أسفار العلماء، على اختلاف طبقاتهم، وأزمنتهم، مجالس للحوار والمباحثة سجلتها الكتب، وخلدت ما دار فيها من جدل وبحث حول القضايا الخلافية في مسائل العقيدة، والفقه، والأدب، واللغة، والتربية وغيرها.

3. أبو نواس، ديوان أبي نواس، تحقيق: أحمد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1953، (ص:455).

ومن أمثلة المناظرات العلمية التي جرت بين العلماء خلال الرحلات والأسفار ما وقع بين الفقيه النوازلي الأندلسي عيسى بن سهل المكنى: أبا الأصبغ، والمولود بجيان سنة (413 هـ) والمتوفى سنة (486هـ). وبين الفقيه الأندلسي أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري المعروف بابن الحداد. وكلا الرجلين تجول في البلدان، ورحل عن بلاده، وطاف في الأقطار؛ تحقيقا لمقاصد شتى، وكان من ذلك أن سافر ابن الحداد من بلاد الأندلس إلى طنجة بلاد المغرب الأقصى، حيث كان يقيم الفقيه ابن سهل متوليا خطة القضاء لدولة المرابطين. فحصل بين الرجلين حوار علمي، ومناظرة في مسائل خلدتها كتب التاريخ، وكان من نتائج هذا التلاقح بين فكري الرجلين تأليف ابن الحداد عقب المناظرة، بعد رجوعه إلى بلاده وسماه: "الامتحان لمن برز في علم الشريعة والقرآن". وضمنه أسئلة عويصة على ابن سهل.

قال ابن الأبار في وصف المناظرة ونتائجها خلال ترجمته لابن الحداد:" ...وعدل إلى طنجة، فلقي بها القاضي أبا الأصبغ بن سهل، وكانت له معه مناظرة في مسائل من العلم، أدته إلى عمل رسالة سماها: رسالة الامتحان لمن برز في علم الشريعة والقرآن. خاطب بها ابن سهل المذكور، وطلب منه الجواب على مسائل عويصة تدل على قوته في العلم واتساعه".[4]

2- القراءة والإقراء:

خلال الأسفار والرحلات إلى مختلف الوجهات كان العلماء يعقدون مجالس الرواية والسماع، وحلقات الإقراء والقراءة، سواء أتعلق ذلك بعلم القراءات القرآنية، وطرق أدائها، أو برواية الحديث النبوي، وتحرير أسانيده، وضبط ألفاظه ومتونه، أو ببث العلوم المختلفة، وتقرير مباحثها، وإطلاع طوائف جديدة من الناس على حقائقها.

وقد وضع أبو سالم العياشي في رحلته الشهيرة فصلا بعنوان:" ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ الأعلام، والأصحاب الكرام؛ ممن أخذت عنه، وأخذ عني".[5]

فأنت ترى ما في العنوان من التصريح بعملية التلاقح والتثاقف التي كانت تقع بين علماء مشرق العالم الإسلامي ومغربه خلال رحلاتهم وأسفارهم.

وتحت ذاك العنوان ذكر جملة ممن قرأ عليهم خلال رحلته، ولا سيما في المدينة النبوية المنورة، ومن جملتهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الديبع اليمني الذي قرأ عليه صحيح البخاري، وقراءة ابن كثير المكي قال عنه:" أول من قرأت عليه بالمدينة وأخذت

4. ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة (1/ 29).

5. العياشي، أبو سالم، الرحلة العياشية (471/1).

عنه، بقية السلف الصالح، وقدوة كل غاد في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديبع اليمني الزبيدي، زاده الله عزا وشرفا، وأسكنه من منازل التقرب غرفا، هو من قدماء مشائخي، لقيته بمكة سنة أربع وستين فأخذت عنه ما تيسر، وأجاز لي كما هو مذكور في كتابنا اقتفاء الأثر".[6]

ثم بعده عقد فصلا آخر أفرده لذكر من تلقى عنه العلوم، وسمع منه الفنون، وكان له شيخا ومعلما بعد أن قعد من قبل معقد المتعلم المتلقي، قال رحمه الله: "ذكر ما أقرأته بالمدينة المشرفة أيام إقامتنا بها".

وكان مما أورده فيه من صور الإفادة العلمية ما حكاه عن عقده مجلسا في الحرم المدني لإقراء المختصر الخليلي، وما حصل إثر ذلك من إعجاب القوم بالشرح وطريقته، قال: "ولما كان أول شهر صفر ألجأنا أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة، أن أقرأ لهم مختصر الشيخ خليل في فقه مالك (...) فقرأنا لهم قراءة لا بأس بها، زعموا أنهم لم يروا مثلها منذ أزمان، ولا بدع في ذلك؛ فإن البلد شاغر من محققي العلوم سيما فقه مالك، فلم نر هناك من يحقق أدنى مسائله".[7]

والشواهد من هذا القبيل أكثر من أن تحصر، وأكبر من أن تنشر، والمقصود التنبيه إلى أن أسفار العلماء كانت ظروفا للفائدة المتشاركة، ومناسبات للنفع المتبادل، وتسهيل سبل التعارف الثقافي وتناقل المعارف.

3- الإنشادات والإفادات:

مثلت الأسفار ظرفا زمنيا مناسبا للعلماء استثمروه في التبادل العلمي، عن طريق تفعيل عادة الإنشاد والإفادة التي تعد مظهرا راقيا لعمران الأوقات، واهتبال المناسبات لتحصيل العلوم، وتقييد الروايات، والتقاط درر الحكم، وغرائب الأخبار.

ومن أشهر المدونات السفرية التي كتبت في تاريخنا الإسلامي: معجم السفر لصدر الدين أبي طاهر السِّلَفي الأصبهاني (المتوفى: 576هـ) والذي دون فيه مروياته التي سمعها من الشيوخ في مختلف البلدان. ومن مروياته التي يحضر فيها المكان حضورا لافتا قوله: "سَمِعت الشَّيْخَ الْأَدِيبَ أَبَا الْفَضْلِ جَعْفَرَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ النَّحْوِيَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّة، يَقُول: سَمِعت أَبِي بِمِصْرَ، يَقُول: سَمِعت أَبَا الْحُسَيْنِ يَحْيَى بْنَ نَجَاحِ الْوَاعِظَ الْأَنْدَلُسِيَّ بِمَكَّةَ، يَقُول: إِذَا ذَكَرْتُ شَيْئًا فَخُذُوهُ بِقَبُولٍ وَاحْفَظُوهُ فَإِنِّي لَا أَعُودُ أَذْكُرُهُ إِلَّا إِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ".[8]

فهذه الفائدة المقيدة عند أبي طاهر، يحضر فيها السفر، والانتقال في الأمكنة من الإسكندرية وسط عالم الإسلام، إلى الأندلس في مشرقه، فوصولا إلى مكة في قلب مشرقه.

6. المصدر نفسه.

7. المصدر السابق، (427/1).

8. السلفي، أبو طاهر، معجم السفر (ص: 66).

ومن إنشاداته المندرجة تحت هذا العنوان قوله:" أنشدني أبو محمد عبد الله بن أبي سعيد النحوي الأندلسي قال أنشدني عبد الحليم بن عبد الواحد السوسي الكاتب بصقلية لنفسه في سهم رد مذبة:

(لِلَّيــَالِي فِي عَكْسِ حــَالِي عِـظَـاتٌ ... لَيْسَ تَخْفَى عَلَى ذَوِي الْأَلْبَابِ)
(صِرْتُ فِي الْخُوصِ بَعْدَ لُبْسِ الْخَوَافِي ... وَاعْتِمَــامِي بِأَزْرَقٍ كَالشِّهَابِ)
(بَعْـدَ ذَبِّ الْكُـمَاةِ عَـنْ حَـرَمِ الْـعِزِّ ... تنقــلن بِي لــذب الذُّبــَاب)

أبو محمد هذا أندلسي فاضل في النحو، وكانت له في جامع عمرو حلقة للإقراء، وشعره كثير ويعرف بالكاسات، توفي في سنة عشرين وخمسمائة".[9]

وإنشاداته وإفاداته كلها موسومة بهذا الوسم، ومشروطة بالسفر، مع تنوعها في النوع ما بين حديث مروي، وشعر وعظي، وفائدة تربوية، ومعنى لطيف.

4- حركة الكتب والمكتبات:

كانت أسفار العلماء ورحلاتهم أحد الروافد المهمة التي أسهمت على نحو مؤثر في نقل المعرفة، وتحقيق التواصل الثقافي بين الأقطار، وذلك عبر جلب الكتب، وابتياع نوادر المؤلفات، وتعمير الخزائن بالأعلاق النفيسة من المدونات التي لم يكن من سبيل إلى الاطلاع عليها إلا بالسفر والانتقال إلى محلات وجودها، وابتياعها، أو استنساخها.

ولقد عرفت الحضارة الإسلامية صورا مشرقة من مظاهر العناية بالكتاب، والحرص على اقتنائه، حتى قال المؤرخ ول ديورانت:" وكان عند بعض الأمراء، كالصاحب بن عباد، من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة".[10]

والمطلع على التاريخ الحضاري للمسلمين يعرف بغير كبير عناء، أن الرحلة والسفر كانت أهم الوسائط التي تخطت بها الكتب الحدود، وعبرها تجاوزت الحواجز والمسافات. ويروي الذهبي عن الحافظ ابن منده المحدث الرحالة الجوال بأنه جمع في رحلته العلمية من الكتب أحمالا عظيمة يتوقف الفكر في تصورها، قال: "ولما رجع من الرحلة الطويلة كانت كتبه عدة أحمال حتى قيل: إنها كانت أربعين حملًا، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأمة سمع ما سمع، ولا جمع ما جمع، وكان ختام الرحالين، وفرد المكثرين، مع الحفظ والمعرفة والصدق، وكثرة التصانيف".[11]

ولنا في تاريخ الأندلس شواهد ناطقة بالفضل المشكور الذي كان لأسفار العلماء على أهل هذه الناحية النائية من نواحي عالم الإسلام، من حيث تعريفهم بعلوم المشارقة، وإيقافهم على ما انتهت إليه عقولهم؛ ليبدؤوا بعد ذلك رحلة مشوقة من مواصلة البحث، وتجديد النظر، وإتمام المسار في إطار تلاقح فكري بين المشرق والمغرب عز نظيره.

---

9. السلفي، أبو طاهر، معجم السفر (ص: 157).

10. ديورانت، ول، قصة الحضارة، (171/13).

11. الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (3/ 158).

ومن أمثلته ما وقع من نقل لعلوم العربية، وفنون اللسان إلى الأندلس بواسطة أبي علي القالي الذي رحل بعلمه وكتبه بطلب من الحكم المستنصر الذي كان من سياسته: استقدام العلماء وعلمهم المودع في الكتب، "فأقام للعلم والعلماء سلطانا نفقت فيها بضائعه من كل قطر. ووفد عليه أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي من بغداد؛ فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالا من التجّار، ويسرّب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه".[12]

وبمثل هذه السياسة الحكيمة نهض علم العربية في الغرب الإسلامي نهضة يكفي لتصور عظمتها ذكر أسماء أعلام الأندلس في النحو واللغة؛ ليتداعى إلى الفكر ما خلفوه من الآثار الدالة على النبوغ الزائد، وتوقد القرائح، وجودة الأفهام.

ومن أمثلة ذلك في مجال الدراسات الشرعية ما حمله معه المحدث الكبير بقي بن مخلد إلى بلاده الأندلس بعد رحلته الطويلة إلى المشرق من كتب الحديث والفقه التي لم تدخل قط إليها قبل رحلته، ومنها مصنف ابن أبي شيبة، وكتب الشافعي في الفقه، وتاريخ ابن خياط...

قال ابن الفرضي: "ومما انفرد به، ولم يُدخله سواه (مصنف) أبي بكر بن أبي شيبة بتمامه، وكتاب (الفقه) لمحمد بن إدريس الشَّافعي الكبير بكماله -يعني: (الأم) - و(التاريخ) لخليفة بن خياط، وكتابه في (الطبقات)، وكتاب (سيرة عمر بن عبد العزيز) للدورقي".[13]

وقد أنتج هذا الانتقال بالكتب إلى البلاد الأندلسية حراكا علميا ما كان له أن يحدث لولاه، حتى تغيرت الحالة العلمية فيها من اتجاه علمي يغلب عليه حفظ فروع الفقه، والاقتصار على مسائل المذهب الفقهي المتبع، إلى اتجاه جديد يجمع إلى ذلك معرفة أصول القضايا، وحفظ نصوص الحديث، والاهتمام بالرواية والأسانيد.

قال ابن الفرضي: "وبقيٌّ بن مَخلَد مَلأ الأندلس حديثاً ورِواية، وأنكر عليه أصحابه الأندلسيون: عبد الله بن خالد، ومحمد بن الحارث، وأبو زيد ما أدخله من: كُتْب الاخْتلاف وغَرائب الحَديث وأغْرُوا به السلطان وأخافوه به. ثمَّ ان الله بمَنَّه وفَضله أظهره عَليهم، وعَصَمه مِنهم. فنشر حديثه، وقرأ للنَّاس رِوايته. فمنْ يومئذ انتشر الحَديث بالأندلس. ثمَّ تَلاه ابن وضَّاح، فصَارت الأندلُس دار حَديث وإسناد؛ وإنما كان الغَالِبُ عليها قبل ذلِك حِفْظ رأي مالك وأصحابه".[14]

12. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون (4/ 188 و189).

13. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (1/ 109)، وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (13/ 287).

14. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (1/ 108).

ونتج عنه أيضا تلاقح فكري من وجه آخر، تمثل في أن بقي بن مخلد وضع لنفسه كتابا مسندا في الأحاديث والآثار جدد فيه على مستويي الشكل والمضمون؛ فقد جمع فيه بين طريقتي المصنفات المبوبة على الفقه، والمسندات المرتبة على الرواة، وهي طريقة مبتكرة لا نظير لها، وأما من جهة المضمون فإن مسنده جمع الروايات من ألف وثلاثمائة راو، مع العناية الشديدة بالصناعة الحديثية تعليلا وتصحيحا، قال ابن حزم عن ذلك: "و(مسند) بقي روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه، وإتقانه واحتفاله في الحديث".[15]

والحديث عن سفر الكتب وانتقالها مع العلماء، وما نتج عن ذلك من حركة علمية متجددة يطول، وتتعدد صوره وأمثلته، وإنما المراد التنبيه بالجزء على الكل، والإشارة إلى الموضوع، ليقاس عليه ما لم يأت عليه الذكر والتنبيه.

خاتمة

كان الغرض من هذا البحث دراسة أشكال التلاقح والتثاقف العلمي التي عرفتها أسفار العلماء، ورحلاتهم التي خلدتها كتب التاريخ والتراث الإسلامي، والسعي إلى إبراز مظاهر ذلك، ومن أهمها: حصول المناظرات والمحاورات بين علماء الأقطار المختلفة، وعقد مجالس الرواية والسماع والقراءة والإقراء، وتبادل الإفادات والإنشادات، ثم حركية الكتب والمصنفات وانتقالها بواسطة الأسفار بين الأقطار.

ونرجو أن يكون المقصد الأبرز للبحث قد تحقق في جزء منه على الأقل، وهو: الدعوة إلى تضييق الفجوات الثقافية بين النخب العالمة، واستثمار السفر من أجل تحقيق ذلك، تمهيدا لتحقيق أكبر قدر من التواصل الثقافي الممهد للتواصل في مختلف المجالات.

15. الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (13/ 291).

القيم في السيرة النبوية

د. مصطفى عكلي

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله الأطهار وصحبه الكرام.

أما بعد؛

فإن دين الإسلام دين لا يلغي ما كان قبله من الأصول الثابتة في الشرائع المتقدمة، دينٌ لا ولن يسعى إلى طمس ما وجد عليه الناسَ من قيم نبيلةٍ وسلوكاتٍ سويةٍ، بل على العكس من ذلك تماما، فالإسلام جاء لتأكيد تلك الأصولِ وترسيخِها، وتثبيتِ تلك القيم وتعزيزِها، وإحياءِ ما اضمحلّ منها واندثر، وإصلاح ما تبدّل منها وتغيَّر، وهذا ما يؤكده نبيُّ الإسلام عليه الصلاة والسلام، قولا وعملا، فقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: "{إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ}"[2].

فبعثة النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، إنما هي إكمال للبناء الإيماني والهدي الإلهي، الذي بسببه وَضَحت للبشرية أسبابُ السعادة، وأُتمت مكارمُ الأخلاق وركائزُ الحق والعدل.

إذا ثبت هذا، فإن السيرة النبوية مصدرٌ أساسٌ ومنبع أصيلٌ لاستلهام القيم النبيلةِ والأخلاقِ السامية؛ كيف لا وهي التطبيقُ العملي لتعاليم الإسلام كما أرادها الله عز وجل أن تطبقَ على أرض الواقع، وكيف لا وقد قدّم، عليه الصلاة والسلام، الصورةَ المشرقةَ للإنسان الذي يُمارس إنسانيته بكل أبعادها، ويتفاعلُ مع الواقع بكل معطياته.

---

1. أخرجه البخاري في الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1422، كتاب المناقب باب خاتم النبيئين صلى الله عليه وسلم، حديث: 3535 ج 186/4، ومسلم في الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب في الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين، حديث: 2286 ج 1970/4.

2. رواه الإمام أحمد في المسند 381/2، الطبعة الثانية دار الفكر، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت، 1398-1978 عن أبي هريرة، بإسناد رجاله رجال الصحيح، ورواه الحاكم في المستدرك: 670/2 رقم 4221، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، 1411-1990، عن أبي هريرة وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

هذا، وقد جاءت هذه الوريقات لتبحثَ جانبا من القيم الإنسانية الاجتماعية في سيرة خير البرية، وتدلّلَ عليها من خلال الأحداثِ والمواقفِ الواضحةِ الصريحةِ الثابتةِ في تلكم السيرة، وقد وقع الاختيار على قيم التعارفِ والإخاءِ والإيثارِ والمواساة والتعاونِ. وهذا أوان الشروع في المقصود، مستعينا بالله عز وجل، و به توفيقي وعليه اعتمادي.

أولا: قيمة التعارف:

إذا أردنا أن نصوغ معنى عاما للتعارف فإنه ذلك الجسر التي يربطُ بين الناس ويؤلِّفُ بينهم في سبيل تحقيق غاياتهم وأهدافهم المشتركة. فهو بهذا قيمةٌ إنسانيةٌ حضاريةٌ نبيلةٌ. والتعارف "لفظة قرآنية تروم التقريبَ وخلقَ مستوياتٍ عالية من التناغمِ والتفاهمِ والتعارفِ بين الأمم والشعوب المختلفة".[3]

والتعارفُ إنما يتحقق بشكل متدرج، من المجال الضيق إلى المجال الواسع؛ "فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يَخْلُون من انتسابٍ ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائرُ مع البطون والبطونُ مع العمائر، والعمائرُ مع القبائل، والقبائلُ مع الشعوب لأن كل درجة تأتلفُ من مجموع الدرجات التي دونها".[4]

ومعلوم من ديننا الحنيف أن الغايةَ الكبرى والمقصدَ الأعظم من جعل الناس شعوبا متفرقة ومتباعدة، وأجناسا متنوعة، ومن اختلاف الألسن والألوان، والسلوكيات والأخلاق والمواهب والاستعدادات، هو تحقيق التعارف والتلاقي والألفة بين الناس، وذلك مصداق قولِه تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات: 13].

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" من أسباب نزول هذه الآية فقال: "قال ابن عباس: لما كان يومُ فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالًا حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن، فقال عتَّابُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعِيصِ: الحمد لله الذي قبضَ أبي حتى لا يرى هذا اليوم".

3. بوعبيد صالح الازدهار، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 1434هـ/ 2013م، ص12.

4. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور(ت 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية \للنشر - تونس، سنة النشر: 1984هـ ج26ص 259.

وقال الحارث بنُ هشام: ما وجد محمد غيرَ هذا الغُراب الأسود مؤذِّنا. وقال سُهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيِّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخافُ أن يخبر به ربّ السماء، فأتى جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقرُّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى".[5]

وإن أحداث السيرة النبوية لتزخر بكثير من الأحداث والمواقف الدالة على هذه القيمة الإنسانية الحضارية - التعارف – فالرسالة بصفة عامة جاءت موجهة لجميع الناس، وقد استجاب لها القريب والبعيد، والكبير والصغير، والذكر والأنثى، والشريف والوضيع، فجعلت هذا النسيج التي يظهر منه الاختلاف عنوانا للائتلاف.

فعمومُ الدعوة وبثُّ خبرها في العالمين مِن شأنه أن يحقق هذه القيمة، بل إنها تحققت بالفعل، فلقد لبى الدعوةَ بلالٌ الحبشي، وصهيبٌ الرومي، وسلمانُ الفارسي، وفيروزُ الديلمي، وانضم إليها السادة الأشراف والعبيد، ودخل فيها القريب ووفد من أجلها البعيد، وكان التعارف ثمرة لذلك كله.

وكانت يثرب، التي غيّر النبي صلى الله عليه وسلم اسمها فيما بعد إلى المدينة، تتألف من طوائفَ مختلفةٍ غيرِ مؤتلفة في الغالب، متباعدةٍ متنافرةٍ ومتناحرةٍ أحيانا، كحال الأوس والخزرج التي ترجع في الأصل إلى قبيلة الأزد اليمنية، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، لم يتجه إلى بث سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام، بل سعى إلى ما يؤلف بين الناس، ويجعل المجتمع لحمةً واحدةً على تعدّد طوائفه وجماعاته، فكان من الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعَ المدينة الجديد وثيقةُ المعاهدة التي "شكلت فاتحة الطريق أمام مرحلة جديدة من مراحل التعارف العملي بين أمة الإسلام وغيرها من أصحاب العقائد...، وأثبتت في الوقت ذاته رغبةَ المسلمين في التعاون الخالص والمثمر مع يهود المدينة، ونشرت السكينة في ربوع المدينة.[6]

ولنا أن نستحضر في هذا المقام الرسائلَ النبوية التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وعظماء عصـره؛ فبقدر ما فيها من القيام بما أمره الله به من دعوة الناس إلى الدين الجديد، بقدر ما انطوت عليه من آثار التلاقي والتعارف بين الأمم، ويدخل في هذا أيضا اختياره عليه الصلاة والسلام أرضَ الحبشة للمهاجرة الأولى لتكون مأوىً للمستضعفين الذين اضطهدتهم قريش بداية الدعوة.

---

5. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م. ج 16ص 341.
6. بوعبيد صالح الازدهار، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، ص 140.

من هذه النماذج نستخلص أن لقيمة التعارف، كما مثّلتها سيرة المصطفى، آثارا قيّمة؛ فهي تحقق التآلفَ والتعاضدَ والتماسكَ، ومحبةَ الناس بعضَهم بعضًا، وتبادلَ المنافع، ومن آثارها أيضا سدُّ أبواب النزاع والصراع بين بني البشـر، وإسقاطُ الفوارق بينهم، وجعلُ أهدافهم العامة واحدة.

ثانيا: قيم الإخاء والإيثار والمواساة:

إن هذه المفاهيم الثلاثة بينها ترابطٌ وتكامل؛ فمن معاني الإخاء التأليف بين الناس والتعاضد والمساندة والمساعدة والاتفاق واصطناع المعروف وإسداء الخير، ومن معاني الإيثار تقديمُ الغير وتفضيلُه، وهو النهاية في الأخوة، والمواساة هي مشاركةُ الغير وتنزيلُهم منزلةَ النفس.

وإذا ولجنا إلى السيرة النبوية المطهرة، فإننا سنقف على أورع الأمثلة في امتزاج هذه المعاني، فقد كوّن النبي صلى الله عليه وسلم بمفهوم الإخاء أمة لا وجود فيها لكلمة "أنا"، يشعرُ فيها كل الأفراد أنهم كتلةٌ واحدة، وأن مصلحتَهم وهدفَهم واحد، وبذلك تذوب كل الفوارق التي من شأنها أن تجعل كيان المجتمع الواحد ممزقا مشتتا.

ويكفي في الدلالة على قيم الإخاء والإيثار والمواساة أن نستحضر ذاك الحدث الذي لم يشهد له التاريخ مثيلا، واُعتبرَ أساسا من أسس بناء المجمتع المدني، إنه حدث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، الذي كان من أوائل الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة.

ويذكر أهل السير أن عدد مَن آخى بينهم النبي صلى الله عليه وسلم تسعون رجلا، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار. لقد كشف حدث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عن أروع الصور وأمثل القيم، حيث امتزجت فيه عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وحب الخير، ونورد من ذلك المواقف الآتية، الدالة على غيرها.

لقد بادر الأنصار فور عقد المؤاخاة إلى تحقيقها على أرض الواقع، فطلبوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يُقسم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين النخيل الذي هو في مِلكهم، فعن أبي هريرة "قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لاَ»، فَقَالُوا: «تَكْفُونَا المَؤُونَةَ[7] وَنُشْرِكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا".[8]

7. تكفوننا المؤونة: أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها.
8. أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مئونة النخل وغيره، وتشركني في الثمر، رقم الحديث: 2325.

فقد دلّ الحديث على قيم المواساة والمؤازرة والإيثار من طرف الأنصار، من جهة، ودلّ من جهة أخرى على عفة المهاجرين ومساندتهم لإخوانهم، فبعد أن أبى النبي عليه الصلاة والسلام ما عرضته الأنصار عليهم، اقترحَ هؤلاء أن يقوم المهاجرون بخدمة النخيل بسقيها والقيام بكل ما تحتاجه.

ومن المواقف الخاصة التي أثمرتها المؤاخاة هذا الموقف الذي كان بين عبد الرحمن بن عوف المهاجري وسعد بن الربيع، اللذين جعلهما الرسول عليه الصلاة والسام أخوين، ففي الصحيح قال سعد لعبد الرحمن: "إني أكثر الأنصار مالًا، فَاقْسِمْ مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظرْ أعجبهما إليك فَسَمِّها لي أُطلقها، فإذا انقضت عِدَّتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فَضْلٌ من أَقِطٍ[9] وسَمْنٍ...".[10]

قال الإمام بدر الدين العيني في فقه هذا الحديث: "وفيه: المؤاخاة على التعاون في أمر الله تعالى، وبذل المال لمن يؤاخى عليه".[11]

ومن المواقف الرائعة التي تمخضت عن الإخاء هذا الموقف الذي كان بين الأخوين: سلمان الفارسي المهاجري، وأبي الدرداء الأنصاري، فعن أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة[12] فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا[13] فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كُلْ، فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال: نَمْ، فنام. ثم ذهب يقوم فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قُمِ الآن، فَصَلَّيَا. فقال له سلمان: إن لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه. فأتى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ : «صَدَقَ سَلْمَان».[14]

قال الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله: "وفي هذا الحديث من الفوائد مشروعيةُ المؤاخاة في الله وزيارةُ الإخوان والمبيتُ عندهم وجوازُ مخاطبة الأجنبية والسؤالِ عما يترتب عليه المصلحة وإن كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل، وفيه النصحُ للمسلم وتنبيهُ من أغفل...، وثبوتُ حقِّ المرأة على الزوج في حسن العِشرة ..، وفيه جوازُ النهي عن المستحبات

9. الأقط: لَبَنٌ يجفف ويدخر.
10. صحيح البخاري، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.
11. بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى الحنفى (ت855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج11ص 164.
12. متبذلة: لابسة ثياب البذلة وهي المهنة أي تاركة لباس الزينة.
13. حاجة في الدنيا: أي ومنها زينة المرأة لزوجها وهو لا يأبه لذلك. وكانت هذه الزيارة من سلمان لأبي الدرداء وهذا الحوار قبل أن يفرض الحجاب على المسلمات.
14. صحيح البخاري، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، رقم الحديث: 6139.

إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبةِ الواجبةِ أو المندوبةِ الراجح فعلُها على فعل المستحب المذكور".[15]

ومعلوم أن من الحقوق التي كانت ثابتة بالمؤاخاة، مما يعد النهاية في الأخوة، التوارث بين المهاجرين والأنصار والذي نسخ في السنة الثانية بعد نزول قوله تعالى: (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) [سورة الأنفال: 75]، "وأما المؤاخاة في الإسلام، والمحالفةُ على طاعة الله تعالى، والتناصرُ في الدين، والتعاونُ على البر والتقوى، وإقامةُ الحق فهذا باقٍ"، كما قال الإمام النووي رحمه الله.[16]

وقد خلد القرآن الكريم مواقف الإيثار وروابط التعاضد والتعاون التي كانت بين المهاجرن والأنصار في آيات ستظل شاهدة على هذه القيم العظيمة، يقول الله عز وجل: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 8، 9].

وشهد المهاجرون لإخوانهم من الأنصار على صدق ما قاموا به تجاههم في وقت حاجتهم إليهم، فعن أنس قال: "قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المئونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله قال: " لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم".[17]

ولو بحثنا خارج حدث المؤاخاة لبحث القيم التي نحن بصددها لوجدنا الشيء الكثير، لكن نقتصرُ عليه ففيه غنيةٌ وكفايةٌ.

وخلاصة القول: إن قيم الإخاء والمواساة والإيثار التي تمثلتها تجربة المؤاخاة الفريدة والرائدة، جعلت الأواصر بين الأنصار والمهاجرين قوية، وسمحت للمسلمين في المدينة ببناء مجتمع متماسك متعاضد متآلف متكافل، وقد كان أيضا لهذه التجربة "آثارها البعيدة في الحب والارتفاق، والتعاون والتناصر"،[18] ولا يخفى ما لهذا من آثار في ترسيخ قيم المواطنة.

---

15. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، 1379، ج4ص211-212.
16. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2، 1392، ج16 ص82.
17. أخرجه الإمام أحمد في المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ - 2001 م، ج20ص 360، حديث رقم 13075.
18. أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت1403هـ)، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، دار القلم - دمشق، ط8، 1427 هـ ج2ص 51.

ثالثا: قيمة التعاون

يمكن صياغة معنى للتعاون فنقول: هو توحيد الجهود لتحقيق النفع لعامة الناس ودفع ما يضر بهم. إن التعاون أساس ركين ومتين لقيام أي جماعة، صغيرةً كانت أو كبيرة، ولذلك أمر الله به في محكم تنزيله فقال عز وجل: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: 2]، وهذه آيةٌ جامعة في موضوع التعاون والتكافل، والخطاب فيها عام يشمل جميع الناس، قال الإمام القرطبي رحمه الله: "وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي ليُعِن بعضُكم بعضا، وتحاثّوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الدال على الخير كفاعله)".[19]

وقد بيّن – رحمه الله - وجوها من التعاون التي يجب أن تكون بين مختلف الناس، فنقل عن الإمام ابن خويز منداد في أحكامه قوله: "والتعاونُ على البر والتقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناسَ بعلمه فيعلمهم، ويعينَهم الغنيُّ بماله، والشجاعُ بشجاعته ...، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة (المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم).ويجب الإعراضُ عن المتعدي وتركُ النصرة له وردُّه عما هو عليه".[20]

وقد صوّر الرسول الكريم المؤمنين حاضّا إياهم على التعاون والتعاطف والتعاشر، فقال عليه الصلاة والسلام: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى".[21]

وقال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ".[22]

فالحديثان، وغيرهما كثير، صريحان في الحث على التعاون والتعاطف والتآزر والملاطفة بين المسلمين، بل هذا - كما قال الإمام ابن بطال القرطبي رحمه الله -: "من حقوق المسلمين بعضِهم على بعض مندوبٌ إليها مرغبٌ فيها".[23]

---

19. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6ص46.
20. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6ص47.
21. أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج4/ص 1999، حديث 2586.
22. أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب العلم، باب الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ج4/ص 2074، حديث 2699.
23. ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت449هـ)، شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، ط2، 1423هـ – 2003م، ج5ص85.

بعد هذا التأسيس العام ننتقل إلى السيرة النبوية لنقتبس منها شذرات كاشفة لقيمة التعاون، ذلك أن السيرة حافلةٌ بالمواقف والأحداث الدالة على هذه القيمة، ملأى بتطبيقاتها العملية، في كل جانب من جوانب الحياة.

فإذا نظرنا إلى الأربعين سنة الأولى من حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فإن أخبار السيرة تثبت لنا أن المجتمع العربي تجسدت فيه هذه القيمة، ولنا هنا أن نستحضر قصة رضاعه في بني سعد، حيث كانت النسوان يقدمن إلى مكة يتلمسْن الرضعاء، وكان أهل الحضر (مكة) يختارون المرضعات لأولادهم من أهل البوادي مقابل أجر معين، وما هذا إلا تعاون بين الطرفين وتآزر، ومن الأحداث أيضا كفالته صلى الله عليه وسلم من طرف جده عبد المطلب ثم عمّه أبي طالب، وكان عليه الصلاة والسلام مساعدا لعمّه ولم يكن عالة عليه، إذ كان يشتغل في رعي الغنم لأهل مكة بمقابل مادي، ومنها كفالتُه عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب بعد ذلك، حيث كان عمّه أبو طالب فقيرا ذا عيال، فأخذ منه صلى الله عليه وسلم عليا تخفيفا عليه وعونا له.

ولا بد أن نستحضر هنا من الأحداث التي تظهر قيمة التعاون في أرقى صوره في المجتمع العربي قبل البعثة ذلك الحلف الذي اجتمعت عليه أهم قبائل العرب لنصرة المظلوم كيفما كان؛ إنه حلف الفضول أو حلف المطيبين، قال عليه الصلاة والسلام: "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ".[24] وقد كان هذا الحلف أكرمَ حلف سُمع به وأشرفَه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وقد بسطت كتب السيرة سببَ هذا الحلف وهو أن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل من زُبيد ومنعه حقه، فاستعدى عليه الزُبيدي الأحلاف فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، ثم أوصل شكواه لقريش، فاجتمعت بنو هاشم وغيرُها من القبائل "وتحالفوا في ذي القعدة في شهرٍ حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونَن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه...، وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزُّبيدي فدفعوها إليه".[25]

24. ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري(ت 213هـ)السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ - 1955 م، ج1 ص134.

25. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774هـ) السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، 1395، 1976هـ ج1، 259.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ" دليل على استمرارية هذا النوع من الحلف على الرغم أنه كان قبل مبعثه، وهو ما يعضده قوله في حديث آخر: "مَن كَانَ لَه حِلف فِي الجَاهِلية لَم يَزدهُ الإسلامُ إِلَّا شِدةً".[26]

قال الإمام السهيلي رحمه الله: "ليس معناه: أن يقول الحليف: يا لِفلان لحلفائه، فيجيبوه، بل الشدة التي عنى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إنما هي راجعة إلى معنى التواصل والتعاطف والتآلف".[27]

وتحدثنا السيرة النبوية أيضا عن قصة بناء الكعبة، ومشاركة قبائل العرب في ذلك، ومشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الشرف، وكانت لحكمته صلى الله عليه وسلم الكلمة الفصل في دفع ما سيكون بينها من اقتتال لاختلافها في مَن يكون له شرف وضع الحجر الأسود مكانه.

ومن نماذج التعاون في مرحلة البعثة ما عرفته الهجرة النبوية من تظاهر جهود عدد من الأشخاص وتعاونهم على إنجاحها، وبخاصة بيتُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث أبدى جميع أفراده المساندة التامة وغير المشروطة لتتم هجرة النبي في أحسن الظروف، فأسهم في ذلك أبو بكر الصديق بماله، وشاركت أسماء ذات النطاقين وأختها عائشة رضي الله عنهما في الإعداد لها، وتولى أخوهما عبد الله دور المخبر، وعامرُ بنُ فهيرة مولى أبي بكر دور الممون للنبي وصاحبه حيث كان يريح عليهما الأغنام أمام الغار ليستفيدا من ألبانها، ومن ثَم يرجع بها ماحيا آثار عبد الله، وقام عبد الله بن أريقط، وهو على دينه، بدور المرشد والدليلِ إلى المدينة لخبرته في ذلك، فكان هذا التعاون سببا مهما لإنجاح الهجرة ولقيام المجتمع المدني بعد ذلك.

26. أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت256هـ)في الأدب المفرد، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1419 هـ - 1998، باب لا حلف في الإسلام، ص: 293-294، حديث 570.

27. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت581هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1412 هـ، ج2ص82..

ومن النماذج التطبيقية لقيمة التعاون تضافر جهود المسلمين في حفر الخندق عندما قررت قريش ومن معها من الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة مهاجمةَ المدينة؛ فبعدما أشار سلمان الفارسي بفكرة الخندق التي لما تكن معروفة عند العرب، قسم الرسول عليه الصلاة والسلام العمل بين الصحابة، "فعمل فيه صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين فى العمل والأجر وعمل معه المسلمون، فدأب فيه ودأبوا حتى أحكموه".[28] وقد تحقق هذا بالتعاون والتآزر على الرغم من الظروف الصعبة التي واجهها المسلمون من جوع وتربص العدو بهم، فكان ذلك من أعظم أسباب النصر في الخندق مع أنه لم تحدث فيها مواجهة مباشرة بين الأحزاب والمسلمين.

ومن المواقف المرتبطة بجنابه الشريف وبيته المنيف ما رُوي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروةَ بنِ الزبير: "إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلاَلِ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، فَقُلْتُ يَا خَالَةُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: "الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا".[29]

ففي الحديث إشارة إلى ما كان عليه مجتمع المدينة من تساند وتعاطف فيما بينهم في أمور الحياة وإن تعلقت بالقوت اليومي، قال المهلب بن أبي صفرة: "فيه الحض على التهادى والمتاحفة ولو باليسير؛ لما فيه من استجلاب المودة، وإزالة العداوة، واصطفاء المعاشرة، ولما فيه من التعاون على أمر المعيشة".[30]

28. الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم أبو الربيع (ت 634هـ)الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1420، ج1ص420.

29. أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، ج3ص153، حديث رقم 2658، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزهد والرقائق، ج4ص2283، حديث رقم 2972.

30. الكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين (ت786هـ) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1401هـ - 1981م، ج11 ص111.

ومن أورع النماذج والتطبيقات لقيمة التعاون ما تضمنته قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكاتب صاحبه، قال سلمان: "فكاتبت صاحبي على ثلاث مائة نخلة أحييها له بالفَقِير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أعينوا أخاكم" فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين وَدِيَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاث مائة وَدِيَّة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي " قال: ففَقَّرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها فجعلنا نقرب له الوَدِي ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده...، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: " ما فعل الفارسي المكاتَب؟ " قال: فدُعيت له، فقال: "خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان " فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال: "خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك" قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفسُ سلمانَ بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقَّهم، وعَتقت...".[31]

إن هذه القصة من أروع ما يستدل به على رسوخ قيم التعاون والتآزر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد تمثل الصحابة في قصة سلمان نموذجَ الجسد الواحد، حيث بادر كل واحد منهم وقدم ما يستطيعُه لينعتق سلمان من براثين الرّقِ، وأسهم في ذلك مثلُهم الأعلى وقائدُهم الأعظم عليه الصلاة والسلام.

من خلال ما تقدّم من نماذج وتطبيقات لقيمة التعاون، تظهر لنا آثاره جلية واضحة، فإنه عنصر من عناصر تقوية الروابط والعلاقات المجتمعية والإنسانية عامة، وسبيل لتحقيق الأهداف والوصول إلى الغايات، والإحساس بعوامل الوحدة والانتماء، وطريق لكشف الكربات، وكسر حواجز الفوارق الاجتماعية والتجرد من الأنانية والذاتية المقيتة.

خاتمة:

إن الحديث عن القيم في السيرة النبوية بحر لا ساحل له، لا يمكن أن يستوفيه الباحث حقّه مهما بذل من الوسع والجهد؛ فما من قيمة من القيم الإنسانية والحضارية والكونية إلا ولها في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يشهد لها، وهذا من الإعجاز الذي تتميز به السيرة العطرة، والذي يجعلنا نردد ما قال ابن حزم الأندلسي رحمه الله: "لو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى".[32]

31. جزءمن حديث طويل أخرجه الإمام أحمد، في المسند، ج39ص 140، حديث رقم 23737 .

32. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي القرطبي (ت456هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج2ص 73.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت449هـ)، شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2، 1423هـ - 2003م.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، 1379.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي القرطبي (ت456هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت321هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط1، 1987م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت458هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1421 هـ - 2000م.
- ابن فتوح، محمد بن فتوح بن عبد الله الحَمِيدي أبو عبد الله(ت 488هـ)، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة – مصر، ط1، 1415.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774هـ) السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، 1395، 1976هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل الإفريقى (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هـ.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري(ت 213هـ)السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ - 1955 م.

- أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت1403هـ)، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، دار القلم – دمشق، ط8، 1427 هـ
- أحمد بن حنبل الشيباني (ت241هـ) المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ - 2001 م.
- أحمد بن حنبل، المسند، ، الطبعة الثانية دار الفكر، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت، 1398-1978هـ
- الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 2001م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت256هـ)، الأدب المفرد، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1419 هـ - 1998.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1422.
- بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى الحنفى (ت855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- بوعبيد صالح الازدهار، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 1434هـ/2013م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4، 1407 هـ - 1987 م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ط1، 1403هـ -1983م.
- الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري (ت405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، 1411-1990.
- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت 538هـ)، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان،
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت581هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1412 هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين(ت 911هـ)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق : محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة / مصر، ط1، 1424هـ - 2004م.
- القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (ت1014هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط1، 1422هـ - 2002م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م.
- الكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين (ت786هـ) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1401هـ - 1981م.
- الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم أبو الربيع (ت 634هـ)الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1420.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، المعجم الوسيط، دار الدعوة.
- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور(ت 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984هـ.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري؛ الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي القاهري (ت 1031هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب-القاهرة، ط1، 1410هـ-1990م.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط2، 1392.

مصايف العلماء

فرصُ استفادةٍ واستدامةٍ واستزادةٍ

د. أحمد الكلمي

يعدّ فصل الصّيفِ فترةَ استجمام، نروِّح فيه عن نفوسنا، ونغيّر عاداتنا اليومية التي ندأَبُ عليها في بقيةِ فصول العام، وفي ذلك من الفوائد النفسيّة ما يساعدُنا على تجديد نشاطنا العمليّ، ونشاط أبنائنا الدراسيّ.

ومما يرتبط به اسم الصيف لدينا جميعا مفهوم العطلة، ونعلم جميعا أن العطلة لا تعني إلا الانصرافَ عن مشاغلنا التي نقضي فيها أوقاتَنا عادةً.

لكن الذي نلاحظه أن هذين المفهومين أصبحا عند كثير منّا مرتبطيْن بالتبطُّلِ والفراغ، سواءٌ عند الآباء والأمهات، أو عند الأبناء والبنات.

والحقيقةُ أنه لا تلازم بين العطلة الصيفية، والتبطّل والفراغ، وأن الاستجمامَ والراحةَ ليس من شرطهما أن نكون فارغينَ من أي عملٍ..

ومما يؤكد ذلك ما نشعر به كلما انتهى فصل الصيف من تحسّرٍ على قضائنا ساعاته في برامج غير متوازنة، تفوّت علينا فرص الاستفادة والاستزادة والتعلم..

وسعيا إلى ترشيد استعمالنا لأوقاتنا النفيسة، وأجزاء أعمارنا الغالية، أحدثُكُم اليومَ عن برامج العلماءِ في استغلال أوقات الصيف.

فكيف كانوا ينظرون إليه؟

وفيم كانوا يقضون أيّامه الطويلةَ؟

ويسمرون لياليه القصيرة؟

وكيف كانت عاداتهم فيه؟ أكانوا يقيمون في مواطنهم؟

أم يسافرون إلى أماكن يعتبرونها مصايف لهم؟

تلكم جملة من الأسئلة التي نحاول بها تقريبَ زاوية النظر التي كان علماؤنا المسلمون على اختلاف أقطارهم وأوطانهم ينظرون من خلالها إلى فصل الصيف.

لذلك اخترت لهذه المحاضرة عنوان: "مصايفُ العلماء: فرص استفادةٍ واستدامةٍ واستزادة".

وذلك في فقرتين:

أولا: المصايف في التراث العربي.

ثانيا: نماذجُ من البرامج الصيفية عند العلماء.

فأقول:

أولا: المصايف في التراث العربي:

تعني المصايف: المواضعَ الذي يُقيمُ فيها النّاسُ وقتَ الصّيف؛[1] نجد ذلك في كتب اللغة، ومعناه أن عادة الانتقال في فصل الصيف من الأماكن التي يستقر فيها الناس في غالب أحوالهم هي من العادات القديمة التي جرى عليها العمل حتى صارت عُرْفاً.

ونجد في تاريخنا العربي ما يعرف ب: "رحلة الشتاء والصّيف"، ولا تعني إلا عادةَ التنقل من المواضع التي يشتدُّ فيها الحرُّ صيفاً، ومن المواضع التي يشتد فيها البرد شتاءً.

وهي العادة التي سجّلها القرآن الكريم في سياق الامتنان بالاهتداء إليها، في قول الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

وقد استفاد العلماء من هذه السورة وما فيها من الامتنان بالرحلتين جوازَ الاصطياف، وهو الانتقال عن الأحوال العاديّة تفاديا للسآمة والملل، ومن وسائله السفر قصدا إلى الأماكن التي يمكن أن يجد فيها المرءُ ما يخفف عنه أثر الحرّ وشدّته، أو ينشغل فيه بما يجدد به نشاطه من مباح اللهو والاستجمام، وهو ما عبر عنه ابن العربي ب: "جوازِ تصرّف الرّجل في الزمانين بين محلَّيْنِ يكونُ حالُهُمَا في كلّ زمانٍ أنعمَ من الآخر، كالجلوس في المجْلسِ البَحْريّ في الصّيْفِ، وَفي القِبْلِيّ في الشّتاءِ".[2]

ومما يدُلّ على اهتمام العرب قديما بفصل الصيف أنه اتخذوا له علامتيْن: واحدةً من عالم الأفلاك والنّجوم، وهي طلوع الثريّا، فاعتبروها أمارة انتهاء الشتاء وحلول الصّيف..

وأخرى من عاداتهم الخاصّة باللّباس، وهي خلع العمائم؛ وفي ذلك يقول الإمام مالك بن أنس المدني الحجازيّ: "لم أزل أرى ربيعةَ ابن أبي عبد الرّحمن –وهو من شيوخه- ومَن معه لا يخلعون عمائمهم حتى تطلع الثريّا".[3]

ومن أدلة ذلك الاهتمام أيضا ما نجده في صنف من الكتب التي اشتملت على ما يشبه خرائطَ الطرق، التي تدُلّ على المواضع المناسبة للاصطياف، وهي كتب البلدان، ككتابيْ ابن الفقيه الهمذاني ت: 340هـ، وياقوت الحموي ت: 626هـ، ففيهما إشارات كثيرة إلى أماكن كانت تُتّخذُ مصايفَ لأهل البلدان المختلفة.[4]

1. الأزهري، تهذيب اللغة: 202/9، مادة: قيظ.
2. ابن العربي: أحكام القرآن: 451/4-452.
3. ابن العربي، أحكام القرآن: 451/4.
4. انظر على سبيل المثال: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 381.382/1 و124/2.

ولا يمكن -ونحن نتحدّث عن فصل الصّيف في تراثنا العربي- أن نهمل مجال الأمثالِ، التي حمّلها أسلافنا نفائس الحِكَم، فنجد فيها مفهوم الصيف كثير الحضور والاستعمال.

من ذلك مثلاً: أنهم استعملوا نهار الصيف في التمثيل للطول والثّقل؛ لأن أيّام الصيف تكون أطول أيام السّنةِ، ويزيدها اشتداد الحرّ ثقلاً، وممن وظّفوا ذلك في شعرهم أبو المحاسن الأنصاري الدمشقيّ الأديب ت: 630هـ يصف رقعة –كتبت عليها رسالة إليه من قبل بعض أصحابه، ولعلَّها تضمّنت خبراً اشتدّ عليه-:

وَصَلَتْ مِنكَ رُقْعَةٌ أَسْأَمَتْنِي وَثَنَتْ صَبْرِيَ الْجَمِيـلَ مَلُولاً

كَنَهَارِ الْمَصِيفِ ثِقْلاً وَكَرْباً وَلَيَالِـي الشِّتَـاءِ بَرْداً وَطُـولاً [5]

ومن الأمثال التي استَعمل فيها العربُ الصيفَ قولهم: "الصيفَ ضيّعتِ اللّبَن"، يقال لمن فرّط في أمره، فلم يؤدّه في وقته حتى فاته.[6]

وفي مقابل قمر الصّيف الذي يكثر السّمر في لياليه، فتكثر مشاهدة الناس له، قالت العرب للشيء الضائع أو الغائب الذي تقلّ رؤيتُه ومشاهدتُه: "أضيَع مِن قَمَر الشِّتَاءِ"؛ لأنه لا يجلَس فيه كما يُجلَس في قمر الصيف.[7]

ولما كانت سحبُ الصّيف لا تلبث أن تزولَ وتنقشع، مثلوا لما يقلّ لُبثُه، ويخفّ مُكثُه ب: "سحابة الصّيف"؛[8] وكان الفقيه التابعي الجليل عبد الله بن شبرمة قاضي الكوفة ت: 144هـ، إذا نزلت به نازلة، أو عرضت عليه واقعةٌ مشكلةٌ ملتبسةٌ غامضةٌ يتمثّل قائلاً: "سحابةُ صيف عن قَليل تقَشّعُ".[9]

نستفيد من هذا كلّه إذن أن الصّيفَ مفهوم ذو حضور قويٍّ في ثقافتنا وتراثنا العربي، باعتباره جزءا مهما من أجزاء السنة وفصولها، مرتبطا بعادات عربية عريقة، تدُلّ على وعي عميق بأهمية تدبير أحوال الحياة الفردية والجماعية بما يتناسب مع تقلبات الفصول والأزمنة.

وإذا كانت هذه صورة الصيف والمصايف في تراثنا العربي بشكل عام، فهل من إضاءات في أحوال العلماء خلال فصل الصيف؟ ذلك ما سنستعرض نماذج دالة منه في الآتي.

---

5. الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام: 412/45.
6. ابن السكيت، إصلاح المنطق : 206/1.
7. أبو منصور الثعالبي: ثمار القلوب: 647/1.
8. الثعالبي، ثمار القلوب: 654/1.
9. الثعالبي، ثمار القلوب: 654/1.

•نماذج من البرامج الصيفيّة عند العلماء:

تبيّن ممّا تقدّم أن المصايفَ عبارةٌ عن الأماكن التي يأوي إليها النّاسُ في فصل الصّيفِ. والعلماءُ لا يختلفون في هذا عن عامّة النّاس، لا يخالفونهم في شيء من ذلك، إلا فيما يتميزون به من استدامة ما نذروا أنفسهم لأجله، وهو التعلّم والتّعليمُ والقراءةُ والتأليفُ.

وإن من جملة أسبابِ كثرةِ ما ألفه علماؤنا المسلمون من كتبٍ، استدامةَ الاستفادة، وملازمةَ الاستزادة، من مختلف العلوم والمعارف.

فقد كانوا يقضون في ذلك جلّ أوقاتهم، ولا ينشغلون عنه إلا بما يعينهم عليه من أمر معاشهم. ولا شكّ أنه كانت لهم فترات راحة واستجمام، لكنّهم لم يكونوا يجدون في أوقاتهم متّسعاً للفراغ، وأعني بالفراغ أن يتبطل المرء ويتعطّل، فلا يكون في أمر دينه ولا في أمر دنياه.

لقد كانت لعلمائنا نظرةٌ خاصة إلى الحياة، كانوا يرون وجودَهم عبارةً عن أيّام وساعات ودقائق، وكانوا يذكُرون ذلك كثيرا ويذكّرون به، في كلماتٍ لهم محفوظة.

ومن أجمل ما صاغ فيه أحمد شوقي المصري أمير الشعراء هذا المعنى قولُه:

دَقّاتُ قلب المرءِ قائلةٌ له إن الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

فارفعْ لنفْسكَ بعد موتكَ ذكرَها فالذِّكْرُ للإنسان عمرٌ ثَانِ

إنّ هذا الوعيَ بأهمّيّة الوقت، ونفاسة الزمن والعمر، هي التي أوقدت في نفوس العلماء شعْلةَ الاجتهاد في طلب العلم، وملء الوقت به، واستغراق الأعمار فيه.

ولذلك كثرت كتبهم وتآليفهم، وتنوعت معارفهم، واتّسعت مداركهم، فكانوا في كل علم مشاركين.

ومن أجمل وأكمل النماذج في ذلك، العالمان الإمامان: ابن رشد الأندلسي الحفيد ت: 595هـ والمازري التونسي ت: 536هـ، وهما اللذان حازا شرف الجمع بين معارف الشريعة وصناعة الطب، حتى قيل في كل منهما: "إمامٌ يُفْزَعُ إلى فتواه في الطبّ كما يُفزَعُ إلى فتواه في الفقه".

إن الوعي بقيمة الزمنِ لا يكفي في حسن استغلاله بالتعلّم، إلا إذا أضيف إليه وعي آخر بمراتب العلوم وأهميتها، فهما شرطان يتوقف عليهما النّبوغ في مختلف فروع العلم والمعرفة.

وفي ضوء هذين النوعين من الوعي كان العلماء يبرمجون أنشطتهم العلمية في مختلف أجزاء الزمن، فخصصوا لكل علم ما يناسب طبيعته من الأوقات، تبعا لاختلاف ما يحتاج إليه ذلك العلمُ من درجة التركيز والانتباه، أو أسلوب المطالعة أو النسخ أو القراءة السريعة، أو الحفظ والاستظهار، إلى غير ذلك من الأساليب التي يفردون لكل منها ما يناسبه من ساعات السحر والفجر والصباح، وأحوال الهدوء التام والسكون الكامل.

إن هذه البرمجة لا يؤثّر فيها اختلاف الفصول ولا تقلّب الأحوال ولا تغيّر العوائد، وهي خير معين على ما يليق بالمشتغل بالعلم طالبا دارسا أو معلما مدرّسا أو باحثا مؤلّفاً من استدامة الاستفادة والاستزداة من مختلف فروع المعرفة؛ إذ بها يسير بخطى ثابتة في سبيل الارتقاء نحو كمال شخصيته العلمية، وتكامل جوانب تكوينه المعرفي.

إن طالب العلم حينما يسلك دروب التعلم وَفق منهجٍ واضح المعالمِ، متسلسل المراحل، محكم البناء، يجد في ذلك لذّةً تجعله يواصلُ مسيرة التعلم من غير توقف ولا تراجع.

وهو ما عبّر عنه الشاعر الأديب أبو تمّام الطائي ت: 231هـ، لما قيل له: "إنك لتنظر إلى الكتب كثيرا، وتدمن الدّرس، فما أصبرك عليها !"، قال: "والله ما لي إلف غيرُها، ولا لذّةٌ سواها، وإنّي لخليقٌ إن أتفقدْها أن أُحْسِنَ".[10]

إن للعلم لذة دونها لذائذُ الدنيا بأجمعها !

لأجلها أدام العلماء السهر، وأدمنوا الفِكَر، ولزموا الحلّ والتّرحالَ في فنونه، وأقاموا على تتبع فروعه وشجونه.

ولأجل هذه اللذّة لم يكن العلماء يحيدون عن مناهجهم في التعلم والتعليم والتأليف، حتى في زمن المصيف.

فهذا عبد الله بن مسلمة القعنبي المدني ت: 221هـ، كان الطلبة يأتونه ليلاً في الصيف، فكان يخرج إليهم فيَقرأ لهم الموطأ، والحرّ شديد،[11] فلم يكن يشعر بشدّة الحرّ مع ما يجده من لذّة العلم، وهو يحدّثُ طلبته في ليالي الصيف.

هذه اللذّة هي التي جعلت كثيرا من العلماء لا يصيفون إلا في أماكن يجدون فيها من المدارس ما يواصلون فيه نشاطهم في التأليف والتدريس؛ منهم شمس الدين أحمد

10. عبد الله ابن المعتز العباسي، طبقات الشعراء: 283/1.
11. القاضي عياض، ترتيب المدارك: 198/3-201.

بن موسى الخيالي الروميّ ت: 870هـ، ألف حاشيته في علم العقيدة، أوخر رمضان سنة: 862 هـ، وقت تدريسه في مدرسة تقع في منطقة جبلية، كان قد قصدها لتبديل الهواء في الصيف.[12] فلم يكن الصيف وشدة حرّه بما يذهله عن نشاطه في التأليف.

ونجد في بعض كتب التراجم إشارات لطيفة، إلى نوعِ ما يشتغل به العلماءُ في مصايفهم، من المعارف والعلوم تدريسا وإقراءً، أو تأليفاً وتصنيفا، وذلك أيضا من آثار البرمجة التي ينظمون بها أنشطتهم العلمية.

فمن ذلك: ما ورد في ترجمة الشريف التلمساني ت: 792هـ، من أنّه كان في الصيف يقرأ العلوم العقلية من أصول وبيان وعربية وغيرها، فيقطع نهاره كله فيها بلا فتور.[13]

ومنه أيضا ما ذُكر عن الإمام ابن عرفة الورغميّ التونسيّ ت: 803هـ من أنه كان يقرأ في الصيف الأصلين والمنطق والفرائض والحساب والقراءاتِ في آخر عمره.[14]

ووجدتُ في مقدّمة رسالة فلسفية عنوانها: "إثبات الواجب" لجلال الدين الدُّوّاني ت: 908هـ، قوله: "وقد كتبتها في يومين من أقصر أيام الصيف"،[15] فصرّح باشتغاله بتأليف هذه الرّسالة خلال فصل الصّيف.

ولنا هنا أن نتساءل عن السّبب الذي لأجله كان هؤلاء العلماء يتعاطوْن هذه العلوم العقلية والفلسفية في فصل الصيف خاصة؟

قد يكون سبب ذلك، طولَ أيّام هذا الفصل، فيجد فيها العالم من سعة مجال التأمل والتفكير ما لا يجده في غيره.

وقد يكون سبب ذلك قلةَ الشواغل في فصل الصّيف، حين ينصرف الناس كلهم إلى مصايفهم، فيجد العالم في مصيفه عزلةً يدخل فيها ميدان التأمل والتفكّر.

وقد يكون السببُ أن العالم يجد في هذه العلوم ما ينسيهِ شدّة الحرّ، وثقلَ ساعات النهار في الصيف.

هذا، وإن عمل العلماء في مصايفهم، لم يكن قطُّ بأقلّ من نشاطهم العلمي، وممّن وردَ

12. حاجي خليفة، كشف الظنون: 1145/2.
13. أحمد بابا السوداني، نيل الابتهاج: 227.
14. أحمد بابا السوداني، نيل الابتهاج: 434.
15. جلال الدين الدواني، رسالة في إثبات الواجب: 59.

هذا، وإن عمل العلماء في مصايفهم، لم يكن قطُّ بأقلّ من نشاطهم العلمي، وممّن وردَ عنهم الخبر بذلك أبو قبيصةَ محمد بن عبد الرحمن الضبي ت: 280هـ، الذي وصفه أحد تلامذته –فيما حكى السمعاني- من كتابه في الأنساب، بأنه كان من أدرس الناس للقرآن، موصوفا بكثرة الدّرس وسرعته، وأنه سئل عن أكثر ما قرأ في يوم من أيام الصيف الطوال؟ فأجاب –بعد تكرر السؤال والإلحاح عليه من طلبته بأنه قرأ في يوم من أيام الصيف الطوال أربع ختمات وبلغ في الخامسة إلى سورة التوبة عند أذان العصر.[16]

ترسمُ لنا هذه النّماذج من سير العلماء في "مصايفهم" معالم منهجٍ في الحياة، تحكمُه رؤيةٌ إلى النّفْسِ، وما يحقق وجودَها مما تركه في ميدان العلم والمعرفة من آثار..

تُعلّمنا هذه الصورُ التي ألقينا عليها هذه الإضاءات أن طالب العلم لا ينفكُّ يستزيدُ منه في سائر أحيانه، فلا يلهيه عنه حسن الربيع، ولا حر المصيف، ولا كرب الخريف ولا برد الشتاء..كما قال أبو زكريا ابن فارس اللغوي ت: 395هـ في أبياته المشتهرة:

إِذَا كَانَ يُؤْذِيكَ حَرُّ الْمَصِيـــــــــــــــــــــــــــــفِ وَكَرْبُ الْخَرِيفِ وَبَرْدُ الشِّتَا

وَيُلْهِيكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّبِيـــــــــــــــــــــــــــــعِ فَأَخْذُكَ لِلعِلْمِ قُلْ لِي مَتـــــَى؟

أختم هذه المحاضرة بجملة من المقترحات التي أنصح بها نفسي وأوصي بها أبنائي الطلبة، وهي:

1- أن الصيفَ جزءٌ من العمُر يسري عليه ما يسري على بقية الأجزاء من قانون المحاسبة والمراقبة، وأعني بهذا أن الإنسان مسؤول عن عمره فيما أفناه، مسؤولية ذاتية يمليها عليه ضميره، ودينيةً يقتضيها إيمانه.

2- أن للنّفس حقّها في الرّاحة والاستجمام، فإنّها إذا لم يُرَوّحْ عنها تعبتْ وكلّتْ، وإذا كلّتْ عميَتْ، فلا بأسَ في أن تكون لنا فسحةُ ترويح.

3- أن العطلةَ لا تعني أن يمكث المرءُ عاطلاً عن أي عمل، هاجراً لكل نشاطٍ في العلم أو العمل، وإنما هي فسحةُ ترويحٍ، تمتّع فيها النّفسُ بما تجدّد به نشاطَها، من سفر أو لهو مباح، وما أجمل استصحاب الكتاب في السفر، وما أجمل أن يكون ما تروّح به النفسُ من اللّهو مأخوذاً من كتاب!

4- ما أكثر ما تمَس حاجتنا إلى تعلّمه من المعارف والعلوم التي هي خارج اختصاصاتنا المعرفية، وما أكثر المهارات التي يتطلَّبُ منّا أن نكتسبها ونتمرّن عليها، منها مهارات لغوية،

16. عبد الكريم بن منصور السمعاني، الأنساب: 385/8.

وتواصلية، ومنهجية، وغيرها كثير، تضيق عنها المقرّرات والبرامج الدراسيّة بحكم التّخصُّص، ففي العطلة الصيفية مجال واسعٌ لتحصيل هذه المهارات واكتسابها.

وأخيرا أقول: إن طالبَ العلمِ ينبغي له أن يتعلّم أنّ فرضَ كلّ ساعاته، وواجبَ جميع أوقاته، إنما هو العلمُ، لأجله يُدْلجُ بالأسحار، ويواصل سُرى اللَّيْل بسَيْر النَّهارِ، راميا إلى كلّ فنّ من فنونه بسهم ليحوز منه أوفر نصيب، وينال منه حقّه المطلوب بالفرض والتعصيب، جاعلا نُصب عينيه ما أنشده أبو بكرٍ الخطيبُ:

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْإِدْلاَجِ بِالسَّحَرِ وَبِالرَّواحِ عَلَى الْحَاجَـــاتِ وَالبُكُرِ
لاَ تَعْجِزَنَّ وَلاَ يُضْجِـــرْكَ مَطْلَبُهَا فَالنُّجْحُ يَتْلَفُ بَينَ الْعَجْزِ وَالضَّجَرِ
إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّـــامِ تَـجْـرِبَـةٌ لِلصَّبْـــرِ عَـاقِـــبَةً مَحْمُـودَةَ الْأَثَرِ
وَقَـــلَّ مَـــن جَدَّ فِي أَمْرٍ يُطَالِبُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلاَّ فَـــازَ بِالظَّفَرِ [17]

وبالله تعالى المعونة والتوفيق

17. الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: 2/263-264، والأبيات مختلفة النسبة، نسبت إلى علي ابن أبي طالب وإلى غيره

مصايف العلماء: أسس ونماذج

للأستاذ الدكتور الجيلالي المريني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد: فالحديث عن: مصايف العلماء أسس ونماذج. هو حديث عن الذات، وخدمة للذات ، ونفض للغبار عن الذات، وإحياء للذات،لتقفي الأثر، ومواصلة المسيرة، وتحقيق النجاح والتميز.

وذلك لعمري هو الهدف المتوخى من هذه المداخلة، حيث إني أروم منها تحفيز همم الطلبة والباحثين من شبابنا وشاباتنا في أيامنا هذه التي كلت وضعفت فيها الهمم، وندر فيها وجود الطلبة المحترفين بالعلم. فضاع لقب العالم الموسوعي، المتقن، الذي وهب حياته للعلم.

ونحن إذا استقرينا حياة العلماء، وجدناهم يشتغلون بالعلم طول حياتهم دون ملل أو كلل.

فماهي الأسس والقواعد التي تحكمهم في ذلك:

الأساس الأول:

الأصل في العالم تلبسه بالعلم إلى أن يموت. وأعني بالأصل هنا الغالب الأكثر، وأن هناك إشارة إلى الاستثناء الوارد على هذا الأصل .

وأما قولي "تلبسه": فهي صفة الملازمة، وهي مأخوذة من القاعدة الأصولية اللغوية: "من لم يقم به وصف لم يجز أن يشتق له منه اسم"، فإذا تخلى العالم عن علمه، ومواكبته ومتابعته ومسايرته، فقد زالت عنه هذه الصفة، والدليل على على هذا الأصل:

1 - **القاعدة الأصولية السابقة.** (من لم يقم به وصف لم يجز أن يشتق له منه اسم)

2- الاستقراء: بيانه ودليله

أ - فهذا الإمام أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة (ت 183هـ) رحمه الله، ساعة موته يباحث في مسألة فقهية:

قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري: مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم ما تقول في مسألة ؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟ قال ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج. ثم قال يا إبراهيم ، أيها أفضل في رمي الجمار، أي في مناسك الحج ــ أن يرميها ماشيا أو راكبا؟ قلت: راكبا، قال: أخطأت، قلت: ماشيا، قال: أخطأت، قلت: قل فيها يرضى الله عنك، قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ما كان لا يوقف عنده ؛ فالأفضل أن يرميه راكباً، ثم قمت من عنده؛ فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه وإذا هو قد مات رحمه الله.[1]

ب - وهذا محمد بن الحسن الشيباني:[2]

تلميذ أبي حنيفة (المولود سنة 132هـ والمتوفى سنة 189هـ) رحمه الله، كان جزأ الليل ثلاثة أجزاء: جزء للنوم، وجزء للصلاة، وجزء يدرس فيه، وبلغ شغله بالعلم أنه كان يتوسخ لباسه ـ وهو اللباس المتجمل ـ ولا يتفرغ لنزعه حتى يؤتى بثوب غيره فيلبس وينزع. وكان لا ينام بالليل فقيل له: لم لا تنام؟ فقال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين توكلاً علينا، ويقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه فيكشفه لنا، فإذا نمت ففيه تضييع للدين.وكان رحمه الله يوكل غيره في حوائج أهله ليكون أفرغ لقلبه وأصفى لفكره في الاشتغال بطلب العلم وتحقيق مسائله، فقد جاء عن محمد بن سماعة قال: قال محمد بن الحسن لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فتشغلوا قلبي، وخذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي، فإنه أقل لهمي، وأفرغ لقلبي.

ج ـ وهذا الإمام الشافعي يجزئ الليل ثلاثة أجزاء.

روى القاضي عياض في الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع، بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي تلميذ الإمام الشافعي (المولود سنة 150هـ والمتوفى سنة 204هـ). رحمهم الله تعالى أن الشافعي كان يجزئ الليل ثلاثة أجزاء، الثلث الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام.

1. قيمة الزمن عند العلماء، عبد الفتاح أبو عدة، ص 56
2. نفسه، ص58

د - البيروني يتعلم مسألة في الفرائض وهو في الغرغرة والنزع.[3]

حدث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الولوالجي، قال: دخلت على أبي الريحان البيروني وهو يجود بنفسه، وضاق به صدره، وقد بلغ من العمر 78 سنة. فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوماً وحساب الجدات الفاسدة. وهي التي تكون من قبل الأم ؟ فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة ؟ قال لي: ياهذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها، فأعدت ذلك عليه، وحفظ وعلمني ما وعد. وخرجت من عنده وأنا في الطريق أسمع الصراخ.

وكان هذا الإمام الباقعة في العلم يتقن خمس لغات: العربية، والسريانية، والفارسية، والهندية، والسنسكريتية، وترك من المؤلفات في علوم الفلك، والطب، والرياضيات، والأدب، واللغة، والتاريخ وغيرها ما زاد على 120 مؤلفا، قال فيه المستشرق الألماني الكبير "كارل إدورد سخاوْ" إنه أكبر عقلية عرفها التاريخ.

وقال المستشرق البلجيكي المشهور جورج سارطون: كان البيروني من أعظم عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم.

الأساس الثاني:

الاستثناء من هذا الأصل وهو أساس كذلك وهو باب للأخذ بالرخص وأقول عنه تأصيلا: ما ذكره الإمام إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي المالكي (ت: 790هـ) وهو الفقيه الأصولي المقاصدي المجدد الذي يعتبر كتابه الموافقات في أصول الشريعة، مفخرة العالم الإسلامي بدون منازع، وهو أمر لم يصل إليه بالنوم والراحة والكسل والهدوء والدعة، بل غالب الليالي لأنه كان لا ينام إلا بعد صلاة الصبح.

وأتركه يتكلم عن نفسه رحمه الله، حيث قال: "وعند ذلك فحق على الناظر المتأمل، إذا وجد فيه نقصاً أن يكمل وليحس الظن بمن حالف الليالي واستبدل التعب بالراحة والسهر بالمنام. حيث أهدى إليه نتيجة عمره، ووهب له يتيمة دهره، فقد ألقى عليه مقاليد ما لديه. وطوق طوق الأمانة التي في يديه، وخرج عن عهدة البيان في ما وجب عليه، وإنما الأعمال بالنيات".[4]

---

3. نفسه، 91 ـ 92
4. الموافقات،ج1،ص:26.

إلا أن الراحة والاستجمام قد يكون مباحا؛ وقد يكون مندوبا وقد يكون واجباَ..... وهنا يقول الإمام الشاطبي المجدد: "المباح يكون مباحا بالجزء مطلوبا بالكل على جهة الندب أو الوجوب، ومباحا بالجزء منهيا عنه بالكل على جهة الكراهة أو المنع فهذه أربعة أقسام." والثالث:مباح بالجزء منهي عنه بالكل: كالتنزه في البساتين وسماع تغريد الحمام، والغناء المباح واللعب المباح أو غيرها.فمثل هذا مباح بالجزء.فإذا فعل يوما أو في حالة ما؛ فلا حرج فيه، فإن فعل دائما كان مكروهاً، ونسب فاعله إلى قلة العقل وإلى خلاف محاسن العادات؛ وإلى الإسراف في فعل المباحات".[5]

هكذا كان العلماء في الصيف، الأصل العمل، والاشتغال بالعلم. والقيام بفروض الكفايات، والترويح عن النفس ساعة ساعة، نفعنا الله بعلمهم ورحمهم الله جميعا ورحم الله الشيخ زايد الذي جعل للعلماء مكانة، وعلى هذا صار أولاده حفظهم الله، وحفظ الناس جميعا.

5. الموافقات ج1ص:130،132.

الرحلات الصيفية لعلماء الإسلام

إعداد: د.نورالدين شوبد

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر كتب الرحلات مصدرا مهما من مصادر التوثيق العلمي بمختلف فروعه المعرفية، نظراً لما تحتويه من وصف دقيق ومشاهدات للمعالم الجغرافية، والتجمعات البـشرية، واللقاءات العلمية، وغير ذلك مما قد يمرّ به ركب الرحلة أثناء رحلته. ولذلك نجدهم قد تناولوا أثناء وصف مسالك الرحلة أوصاف الأقاليم والشعوب وأنماط عيشها وعاداتها، وما يفصل بينها من أنهر وبحار وجبال وغير ذلك مما يحسن وصفه، ويستغرب للناظر والقارئ. كما تناولوا كذلك جانباً عظيماً من مظاهر العناية بالعلم والتعلم ولقاء العلماء ومجالستهم.

ولا يخفى على المتأمل في هذا النوع من المصنفات أن لرحلات العلماء خصائص ومميزات تختلف بحسب الوجهة، والرفقة، والوقت المختار للرحلة فصلاً أو شتاءً، وغير ذلك من الظروف المحيطة والمؤثرة.

ولذلك فقد اعتنى العلماء ببعض أطراف هذا الموضوع وأشاروا إليه في بعض تآليفهم، وممن أثار الفكرة من العلماء: المؤرخ الأديب ذو الوزارتين لسان الدين أبو عبد الله بن الخطيب (ت776هـ)، الذي ألَّف كتاباً بعنوان: "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف"، وهو عبارة عن رحلة رسميّة قام بها سلطان غرناطة، أمير المسلمين أبو الحجّاج يوسف ابن نصر (ت755هـ) ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقّد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة. وقد نشر هذه الرحلة المستشرق الألماني ماركوس جوزيف مولر في كتابه المعروف باسم نخب من تاريخ المغرب العربي. كما اعتنى بنشره أيضا الدكتور أحمد مختار العبادي ضمن كتاب بعنوان "خطرة الطيف في رحلات في المغرب والأندلس" نشر عن دار السويدي بأبوظبي عام 2003م.

كما ألَّف محمد بن عبد الله الحسيني المولوي المعروف بـ كِبْرِيت (ت1070هـ) كتابا بعنوان: "رحلة الشتاء والصيف"، وممَّا قال في مناسبة تسميته: «... وسمَّيتُه رحلة الشتاء والصيف، وناسبتُ فيها مناسبة خلت من الخلل والحَيف، وما أشبهها بما قال:

رحـلةٌ لم يَزَل يفـــنِّدُني الـصَّيْـ ... فُ إذا ما نويتُها والشـــتاءُ
يتَّقي حرّ وجـهي الحرّ والـــبرْ ... دُ وقـد عزَّ مِن لظى الاتقاءُ
ضِقتُ ذَرعاً مما جنيت فيومـي ... قمـطريرٌ وليلـتي درعـــاءُ
كنتُ في نومةِ الشبابِ فما اِستيْـ ... قظـتُ إلا ولِمّتي شـمطاءُ»[1]

صدرت الرحلة بتحقيق محمد سعيد الطنطاوي، عن المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1293هـ.

وللشيخ أبي بكر محمد خُوقير الـمَكي (ت1349هـ) رحلات إلى الهند تتلمذ فيها على كبار العلماء، وجلب كُتباً كثيرة منها إلى مكة، ومما ألَّفه كتاب بعنوان: "مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف"، وهو عبارة عن مقامة أدبية بين فصلي الشتاء والصيف، أتمَّ بها كاتبها مسامرة للجاحظ بعنوان: "سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف"، ومما ذكر فيها قوله: «بينما أنا ذات ليلة في أرق، وضجر شديد وقلق، مما أقاسيه من حرّ السنبلة، وأتجرَّعُه من حرارتها الـمُقَتِّلة، إذ تذكرت فضل البرد، وعيشه الهنيء وعَرفه الوَرد، ... وبينا أنا في تلك الحال، وصرتُ بين اليقظة والنَّوم الحالّ، إذ جاءني طيف خيال، في صورة أسد مغتال، وقال: إنّي أنا الحرّ والقيظُ والصَّيف الفعَّال...»، إلى أن قال:

يتَـمنَّى المرءُ في الصّيف الشتا ... فإذا جاء الشتا أنكره
ليس يرضى المرءُ حالا واحـداً ... قُتِل الإنسان ما أكفَرَه[2]

طبعت المقامة في بيروت سنة 1320هـ.

1. محمد بن عبد الله كبريت، رحلة الشتاء والصيف ص5-6.
2. خوقير، مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف ص 3.

هذا؛ وقد اخترتُ أن أتناول هذا الموضوع من جانب إظهار أنواع الرحلات الصيفية عند العلماء، وبيان بعض مميزاتها وخصائصها، مع ذكر صور ونماذج عنها. وجعلتُ الحديث عن ذلك من خلال المحاور الآتية:

- **تقديم في بيان أهمية الموضوع وغايته.**
- **أولاً: الرحلات عند العلماء: أنواع وأنماط**
- **ثانياً: الرحلات الصيفية عند العلماء**
- **خاتمة**

أولاً: الرحلات عند العلماء: أنواع وأنماط

تُطلق الرحلة في اللغة على معان مختلفة، ولكنها تلتقي في دلالاتها العامة تحت معنى واحد، ولذلك فالمتتبع للمصطلح في المعاجم والقواميس يجد أنه يأتي بمعنى السَّيْر، والانتقال، والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه، كما يأتي بمعنى دُنُوِّ المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل.[3]

وقد صارت الرحلة فنّا من فنون الأدب العربي بعد أن كانت مذكرات ومدونات شخصية يدوّنها العلماء والرحالون لمجرّد الرواية والاستئناس والمتعة. وكانت لهذه العناية دوافع وأسباب جعلتهم يؤطرون هذا الجانب، ويخُصّونه بالتدوين والتصنيف، ومن أهم تلك الأسباب: التأريخ، والتوثيق، والتسجيل الذي يخلِّدُ به الرحالة مسيرته العلمية، أو مشاهداته الجغرافية، أو مناسكه الدينية، أو طريق سلوك القوافل التجارية، أو غير ذلك مما سيأتي.

كما أن أسباب التدوين المذكورة كانت وراء تنوُّع أنماط الرحلة وغناء محتواها، فنجد منها: الرحلة الدينية لأداء فريضة الحجّ، والرحلة العلمية لطلب العلم ولقاء العلماء، والرحلة التجارية، وغيرها من الأنماط والأشكال التي صيَّرت الرحلات مدونات أدبية لها مقامها بين الأصناف الأدبية الأخرى.

وبالنظر للدافع الأكبر لعقد الرحلة عند المسلمين عموماً؛ فقد كان أداء فريضة الحجّ هو السبب الرئيس الطاغي على جميع الأسباب، والمؤدي لظهور وتشكُّل هذا الصنف الأدبي، يليه في الرُّتبة السَّعي لطلب العلم، والرَّغبة في تحصيله على كبار الشيوخ، ثم تتوالى الأسباب التي ذكرناها تِباعاً.

3. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (رحل).

وها أنا أذكر أنواع الرحلات المدونة وأشكالها، مع ذكر أمثلة عنها:

أ- الرحلات الدينية:

تأتي الرحلات الدينية في طليعة أنواع الرحلات المذكورة، لما لها من ارتباط وطيد بالجانب التعبدي الديني، وقد كان ولا يزال للمسلمين عموما ارتباط وطيد بشعيرة حجّ بيت الله الحرام وزيارة مقام المصطفى ﷺ، وشاع هذا النوع في المغرب والمشرق على السواء، ولم يلبث أن تأصل في المغاربة والأندلسيين، وأصبح الإبداع في كتابة الرحلة فنا قائما بذاته من حيث الأسلوب، ومسار الرحلة، وغير ذلك.[4]

ويَتميَّزُ هذا النوع من الرحلات بتعدد أغراضه وتنوع موضوعاته، فنجد الرحالة فيها - وهو قاصد أداء مناسك الحج – يصفُ مُشاهداته الجغرافية، ولقاءاته العلمية، ويُدَلِّل عليها باستدلالاته التاريخية، وقصائده الأدبية، وغير ذلك، مما يجعل منها موسوعة علمية عامة يستفيد قارئها ويستمتع. ومن أشهر من ألَّف في الرحلات الحجازية: أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت614هـ) ورحلته المسماة: (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) وتشتهر بعنوان: (رحلة ابن جبير)، وهي مطبوعة متداولة، وله رحلات أخرى لم تصل إلينا.

كما صنَّف العلامة محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي (من علماء القرن السابع الهجري) رحلة لأداء فريضة الحج اسمها : (الرحلة المغربية)، وضمَّن رحلته هذه أيضاً بعض صور لُقيِّهِ بالعلماء، إضافةً إلى اشتغاله بتجارة وبيع القمح الذي كان يحمله معه ليبيعه في مكة المكرمة.

ب- الرحلات العلمية:

كان طلبُ العلم فضلا عن أداء فريضة الحجِّ والاستفادة من العلماء وتحصيل مصنفاتهم من الدوافع الرئيسة للرحلات العلمية، فقد عُدَّت الرحلة في طلب العلم من الممارسات التي دعا إليها الدين الإسلامي، وحثَّ المسلمين بالتعلم والرحلة في سبيل العلم فقال صلى الله عليه وسلَّم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّلَ الله له طريقا إلى الجنَّة».[5]

ومن أشهر الرحلات المدوَّنة التي غلب عليها الطابع العلمي: رحلةُ العلامة المحدِّث أبي عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيْد الفهري السَّبتي (ت721هـ) وهي رحلة حافلة للحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء، سمَّاها: (مِلء العَيْبة بما جُمع بطول الغَيبة في الوجهة

4. عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ص73.

5. رواه البخاري في صحيحه معلَّقاً، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (24/1). وانظر كتاب الدكتور حسين الجبراني الرحلات العلمية بين مصر والمشرق الإسلامي في العصر المملوكي ص11.

إلى الحَرمين مكة وطَيبة). وقد غلب على هذه الرحلة الجانب العلمي، فاستحقت أن تُدرج في الرحلات العلمية باعتبار الغَلبة، والرحلات الحَجية باعتبار المقصد. فاهتمام ابن رُشيد بعلم الحديث ونبوغه فيه جعله يستغل رحلته للقاء العلماء والشيوخ ويُدوِّن تراجمهم ومجالسهم وإجازاتهم له، فصارت هذه الرحلة مصدراً مهماً من مصادر تراجم العلماء، ومرجعاً أدبياً لما تضمنته من أشعار وقصائد، وموسوعة جغرافية حافلة في وصف مسار الحج الذي سلكه المصنف في رحلته.

ت- الرحلات التجارية:

كانت التجارة من أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعلَّ أول ما ارتبطت به الرحلات؛ علم تقويم البلدان والمسالك والممالك لوصف الطُّرق، والمناخ، وأمور أخرى عديدة، وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحجّ، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع.[6]

ولعلَّ رحلة ابن بطوطة الطَّنجي (ت779هـ)، وقبلها رحلة ابن جبير الأندلسي (ت614هـ) أبرز رحلتين وصف فيها صاحباها النشاط التجاري في مختلف البلدان والبقاع التي مرَّا عليها في رحلتيهما برًّا وبحراً.

فقد قام ابن جُبير برحلته من الأندلس إلى مصر على مركب صليبي، وكان دقيق الملاحظة فيما احتوته رحلته من مادة غنية عن التجارة، وإجراءات الجمارك والضرائب، وأحوال البحر، وعن أنواع السُّفن وطريقة صيانتها.[7]

وفي رحلة ابن بطوطة وصف دقيق لكثير من المراكز التجارية التي مرَّ بها، ومن أوصافه في ذلك وصفه لمركز جمركي بين مصر والشام، قال: «وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس».[8]

وازدهر التأليف في هذا الفن خلال القرون المتأخرة، ولا يزال إلى يومنا هذا، كما طُبع الكثير من هذه الرحلات، وبقيت أخرى حبيسة الخزائن المخطوطة تحتاج من ينفضُ عنها غبار الإهمال والنسيان.

6. نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص47.
7. ابن جبير، رحلة ابن جبير ص13، نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص48.
8. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار 232/1.

ثانياً: الرحلات الصيفية عند العلماء

يؤرِّخُ لنا القرآن الكريم أولى الرحلات في التاريخ العربي القديم وهي رحلة الشتاء والصيف، وقد جاء ذكرها في سورة قريش، ويظهر من هذه السورة كما ذكر المفسرون والمؤرخون أن قريشًا كانت ترحل رحلتين في السنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام. وهما رحلتان تجاريتان، تشتري فيهما وتبيع، وتربح منهما ربحًا صَيَّرَها في وضع مالي حسن. وقد صارت مكة لذلك العهد مركزًا ماليًّا خطيرًا في الحجاز، وسوقًا لتبادل السلع. ولم تكن قريش تستورد التجارة لتُخزنها في مكة، أو لتصرفها في أسواق مكة وحدها. فمكة وحدها بلدة صغيرة لا تستوعب أسواقها هذه التجارة، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب، لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة، وهو القليل، ولتصدر، وهو الغالب، ما استوردته من الجنوب إلى الشمال، أعني بلاد الشام، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشام، إلى اليمن، ومنها إلى بقية المناطق العربية الجنوبية والسواحل الإفريقية المقابلة، فتربح من هذه الصفقات ربحًا حسنًا.[9]

ومع دخول الإسلام وتطور الدولة وتوسُّعها؛ كثرت الرحلات بمختلف أنماطها وصُورها المذكورة فيما سبق، وصارت للناس رحلات في الشتاء وأخرى في الصيف، وكثير منها يمتدُّ صيفاً وشتاءً. وقد اختلفت أغراض هذه الرحلات الفصلية بحسب مقاصد أصحابها منها، فكان التاجر لا يخرج في الرحلة التجارية شتاءً مخافة مواجهة مشاق البرد وما يصاحبه من مخاطر صحية أو خسائر مادية. وإذا كانت الرحلة عن طريق البحر فقد يواجه الرحالة مصاعب تجمد المياه فيُحبسون عن مبتغاهم لشهور حتى يذوب الجليد، وهذا ما يصوِّرُه لنا ابن بطوطة واصفا أحد أنهار خوارزم، حيث قال: «وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة، وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر إتل: ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر. وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا! ويسافَرُ فيه في أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير، وهي مسيرة عَشْرٍ للمنحدِرِ».[10]

9. العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي 252/1. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 290/13

10. ابن بطوطة، تحفة النظار 10/3

كما تحدَّث خالد بن عيسى البلوي (المتوفى بعد 767هـ) عن القاهرة التي كانت مركزاً علمياً وتجارياً كبيراً ووصف عدد الجِمال التي تدخُلها بَرّاً وبحراً في أيام الصيف مقارنة مع غيره من الفصول. وكما هو معلوم فالعَدُّ بالجِمال له دلالة على مقادير السِّلع التي تدخل البلاد، وأفواج الحشود من الناس التي تأتي للسياحة وطلب العلم والتجارة وغير ذلك خلال فصل الصيف. يقول رحمه الله: «أخبرني الشيخ الإمام القدوة شمس الدين الكركي قال: عَدَّ الصاحب الوزير الملك الطاهر وأحصى الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت مائتي ألف جمل، ما عدا البغال والحمير والسَّقَّائين الذين بالزقزق وغيرهم، فإن ذلك شيء لا ينضبط ولا ينحصر، وهذه الجمال المذكورة تحط بالمدينة في كل يوم من أيام الصيف سبع آلاف، وفي الشتاء أقل من ذلك».[11]

كما أن طلاب العلم كانوا يستغلون فصل الصيف ويتنافسون في الرحلة والسفر في طلب العلوم والمعارف، وقد وصف ابن بطوطة وغيره أنه صادف في أيام الصيف أثناء رحلته طلاب العلم من مختلف الأجناس وفي كثير من القرى يسكنون الزوايا مع فقراء الناس، صبراً على التعلُّم ولقاء الشيوخ، ومما قاله في ذلك: «ثم سافرنا إلى قرية الجَرْخ، وهي كبيرة لها بساتين كثيرة، وفواكهها طيبة، قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة، وصلّينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي».[12]

وقد نقل أبو العباس الناصري عن العلامة أبي محمد عبد الله الوَرْياكْلِي الَّذِي قَالَ لَهُ العَلامَة ابن مَرْزُوق - وقد عزم على الرحلة إِلَى بِلَاد الْمشرق فِي طلب الْعلم -: لَيْسَ أمامك أحد أعلم مِنْك، قَالَ: فَرجع من هُنَالك ...، وَكَانَ من عَادَته أَن يشْتَغل بالتدريس فِي فَصلي الشتَاء وَالربيع وَيخرج فِي الصَّيف والخريف فيرابط فِي ثغور الْقَبَائِل الهبطية.[13] فاشتغال العلماء بالتدريس في فصل الشتاء فيه دلالة على أن الشتاء مظنة الاستقرار والركون بسبب المناخ الذي يسود فيه، فلا يحسن بالعالم ولا طالب العلم الخروج فيه، فلذلك تجدهم يستغلون فصل الصيف ويستثمرونه للخروج والرحلة لِلُقِيّ العلماء وحضور مجالس العلم.

11. البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ص33.290
12. ابن بطوطة، تحفة النظار 61/3
13. الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 114/4.

ويحكي خير الدين الزِّركلي في ترجمة محمد بن ثابت الـمُلَقَّب بالرحَّالة المصري (ت1377 هـ)؛ أنه كان جغرافياً من أهل القاهرة، وكان يُعلِّم في بعض المدارس الثانوية، ويقوم في عطلة الصيف من كل سنة برحلة يدوّن مشاهداته فيها. فألَّف بسبب كثرة أسفاره الصيفية كُتباً جمَّة منها: (الموجز في الجغرافية الإقليمية)، و(جولة في ربوع إفريقية)، و(جولة في ربوع أوربا)، و(جولة في ربوع آسيا)، و(جولة في ربوع الدنيا الجديدة)، و(رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها)، و(العالم العربيّ كما رأيته)، و(نساء العالم كما رأيتهن).[14]

خاتمة:

خلاصة الكلام أن العلماء منذ القديم كانوا ولا يزالون يخصون فترات الصيف بأحوال خاصة، فيستثمرون الشتاء في الجدّ والاجتهاد، والركون للتدريس والتأليف، وكل الأنشطة التي تحتاج منهم للتركيز، ثم لا يتركون فترة الصيف تضيع فيما لا فائدة فيه، فيخرجون ويسافرون طلباً للتعلم، ولقاء العلماء، ونشر العلم، وصلة الرحم، وغير ذلك من أنواع الصِّلات العلمية والثقافية والروحية، ولا شك أن لكل ذلك إيجابيات كثيرة، فهي لون من ألوان النشاط العلمي، ومظهر من مظاهر التلاقح الفكري.

14. الزركلي، الأعلام 6/67-68.

المصادر والمراجع:

- أبو العباس الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- أبو بكر محمد خُوقير الـمَكي، مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف، طبع في بيروت سنة 1320هـ.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م.
- حسين الجبراني، الرحلات العلمية بين مصر والمشرق الإسلامي في العصر المملوكي، دار الغيداء للنشر والتوزيع، 2016م.
- خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن بن محمد السائح، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1960.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، 2002م.
- عبد الملك بن حسين العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م.
- عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
- لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف في رحلات في المغرب والأندلس (1347-1362 م)، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر والتوزيع - أبوظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت الطبعة الأولى 2003م.
- محمد ابن بطوطة الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ.
- محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- محمد بن عبد الله الحسيني المعروف بـ كِبْرِيت، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، عن المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1293هـ.

- محمد بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة 1414 هـ.
- نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، دار المامون للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى 1428هـ/2008م.
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري (ت256هـ)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت711هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة 1414 هـ.
- مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف، أبو بكر محمد خُوقير الـمَكي (ت1349هـ)، طبع في بيروت سنة 1320هـ.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م.

الإمام مالك: مذهبه الفقهي ومنهجه الأصولي

إعداد: د. محمد الشيخ عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على نبيه الكريم وبعد فقد اخترت أن يكون موضوع هذا البحث:

الإمام مالك: مذهبه الفقهي ومنهجه الأصولي:

يدفعني إلى ذلك المكانة العلمية الخاصة لصاحب المذهب، وثراء فقهه وتنوع أصوله، والحاجة الماسة إلى تنشيط الذاكرة بالحديث عن هذا الإمام ومذهبه الفقهي ومنهجه الأصولي المتفرد.

وقد سبقني إلى هذا الموضوع عدة رجال فأجادوا وأفادوا وأمتعوا في ذلك إلا أن هذا الموضوع سيظل بحرا فياضا زاخرا بشتى المعارف التي تتجدد كلما تقدم الزمان وتغير المكان من أجل الحكم على كل الوقائع المتجددة مهما كانت.

ومن أجل أن يظل هذا المنهج قادرا على مواكبة الأحداث لابد من النظر الدائم فيما كتبه المتقدمون، وقراءة ما حرره المتأخرون للإجابة على بعض الإشكالات العالقة، فهذا الموضوع وإن كان قد كتب فيه الكثير إلا أن المطالع لما كتب فيه يخرج بعدة ملاحظات أهمها الحاجة إلى :

- **ضبط المقصود بفقه الإمام وفقه أصحابه.**
- **ضبط أصول مذهب الإمام مالك.**

وفي انتظار وجود مشروع جامع يلملم أطراف هذا الموضوع ويجمع شتاته من الدواوين والمصادر الخاصة به، نقدم محاولة تضيء بعضا من جوانبه، متمثلين قول الراعي النميري:

ولكنه قد ينزل الجهد مقتر وقد تكرم الأضياف والقد يشتوى

وذلك في ثلاثة محاور بعد المقدمة والخاتمة:

المحور الـأول: مدخل إلى ضبط مصطلحات البحث.

المحور الثاني: فقه الإمام مالك وترجيحه وثناء العلماء عليه.

المحور الثالث: المنهج الأصولي عند الإمام مالك.

خاتمة بأهم النتائج.

المحورالأول: مدخل إلى ضبط المصطلحات:

- الإمام مالك: هو شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك، الإمام المشهور صدر الصدور وارث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يفت حتى شهد له سبعون إماما أنه أهل لذلك.
- المذهب هو: "الطريقة يقال ذهب فلان مذهبا حسنا، أي طريقة حسنة.. و من المجاز: المذهب: (المعتقد الذي يذهب إليه)".[1]
- الفقه في اللغة: الفهم، وهو في الاصطلاح: "العلم بالأحكام الشرعية العملية بالاستدلال" ويقال فقه بكسر القاف إذا فهم وبفتحها إذا سبق غيره للفهم وبضمها إذا صار الفقه له سجية".[2] و المذهب الفقهي في الاصطلاح: "حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية".[3]
- منهج الإمام مالك الأصولي: هو عبارة عما كان يعتمده من طرق الاستدلال وقواعد الاستنباط والنظر في مقاصد الشريعة ومآلاتها، وهذا ما أشار إليه في مقدمة كتابه "الموطأ" حين قال: "فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الصحابة والتابعين ورأيي، وقد تكلمت برأيي، وعلى الاجتهاد، وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، ولم أخرج من جملتهم إلى غيره".[4]

ولم يدون مالك أصوله التي بنى عليها مذهبه إلا أن أصحابه وتلامذته تتبعوا مسائل مذهبه فاستخرجوها منها وهم في ذلك بين المكثر والمقلل والمتوسط، وسيتضح ذلك في المحور الخاص بالمنهج لأصولي.

المحور الثاني: فقه الإمام مالك وترجيحه وثناء العلماء عليه.

لن أعرف في هذه العجالة بإمامنا وإمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي؛ لقلة قيمة ذلك من ناحية البحث، فقد كتبت في ذلك الأسفار وتناقلته الأخبار في مشارق الأرض ومغاربها، وإنما أحاول لفت الانتباه إلى توضيح بعض الإشكالات المتعلقة بالمذهب المالكي وأصوله.

1. أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس مادة: ذهب
2. أبو العباس شهاب الدين القرافي ، الذخيرة، ج1 (بيروت دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1994م) 57.
3. أبوعبد الله محمد بن محمد الطرابلسي، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ج 1 (دار الفكر ط. 1992م)، 24.
4. أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب السالك، ج.2، تحقيق ابن تاويت الطنجي وآخرون (المغرب: دارا فضالة، ط.1، 1983م)، 73.

أولا: فقه الإمام مالك: يتميز فقه الإمام مالك بالتيسر والمرونة، وقوة الأصول وضبط الأدلة وغزارة الفروع، ومراعاة المصالح والمقاصد، ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ في مهبط الوحي وموطن الرسالة وتطبيق السنة.

سطر الإمام مذهبه الفقهي بيده ورتبه في كتابه: "الموطأ" الذي طبقت شهرته الآفاق وملأ الدنيا وشغل الناس، فكان كتابا بديعا: جمع بين الحديث الشريف، وآثار الصحابة والتابعين واختياراتٍ من فقه الصحابة والتابعين المعززة بالأسانيد الصحيحة، وضم مالك إلى ذلك اجتهاداته وآراءه الفقهية التي اختارها بنفسه.

وقد وضع الله القبول لهذا الكتاب فطبقت شهرته الآفاق وتلقته الأمة بالقبول وأقبل عليه الناس بالشروح والتعاليق، والتخريج، والمتابعات والشواهد، ولعل سر ذلك هو الإخلاص لله عز وجل.

وقد أشاد من لا يحصى عددا بهذا الكتاب وأثنى عليه ثناء عجيبا، ولعل من أحسن ما وقفت عليه ما نقله ولي الله الدهلوي حيث جعله أصلا لكل المذاهب قال: "وقد رَوَاهُ عَن مَالك بِغَيْر وَاسِطَة أَكثر من ألف رجل وَقد ضرب النَّاس فِيهِ أكباد الْإِبِل إِلَى مَالك من أقاصي الْبِلَاد ...وَقد اشْتهر فِي عصره حَتَّى بلغ جَمِيع ديار الْإِسْلَام، ثمَّ لم يَأْتِ زمَان إِلَّا وَهُوَ أَكثر لَهُ شهرة وَأقوى بِهِ عناية، وَعَلِيهِ بنى فُقَهَاء الْأَمْصَار مذاهبهم ...وَلم يزل الْعلمَاء يخرجُون أَحَادِيثه، ويذكرون متابعاته وشواهده، ويشرحون غَرِيبه، ويضبطون مشكله ويبحثون عَن فقهه، ويفتشون عَن رِجَاله إِلَى غَايَة لَيْسَ بعْدهَا غَايَة".[5]

ثانيا: مذهب الإمام مالك:

الحديث عن الفقه أخص من الحديث عن المذهب؛ فلذلك كان فقه الإمام الذي نقطع بنسبته إليه هو ما سطره بنفسه في كتابه الموطأ، أو تلك المسائل التي صرح أصحابه بسماعها منه.

لذلك أبدى كثير من الباحثين تحفظا على استعمال مصطلح "المذهب" فيما خرجه المتأخرون من الفروع وما أجابوا عليه من النوازل على أصول الإمام وقواعده.

وإذ تمسّ الحاجة إلى تحرير مفهوم المذهب، فلا بأس أن نورد هنا تعريف القرافي ، ولفظه:

5. أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة 1 (بيروت: دار الجيل ، ط. 1، 2005م)، 231.

"فإذا قيل لك: ما مذهبُ مالك؟ فقُل: ما اختَصَّ به من الأحكام الشرعيةِ الفُرُوعيةِ الاجتهاديةِ، وما اختَص به من أسبابِ الأحكام والشروطِ والموانعِ والحِجاجِ المثبِتةِ لها. وهذا هو اللائق الذي يُفهَمُ في عرف الإستعمال".[6] ويعضد النفراوي ذلك بقوله: "المذهب هو ما ذهب إليه الإمام من الأحكام معتمدة كانت أو لا".[7]

وإذا تأملنا هذه التعاريف ندرك أنها تؤسس لحقيقة واحدة وهي أن المذهب الذي يمكن نسبته للإمام يقتصر على ما ذهب إليه الإمام بنفسه من الآراء الاجتهادية التي لم يرد فيها نص من كتاب ولا سنة؛ إذ "الأحكام المنصوصة في الكتاب والسنة ليست مذهبا لإمام دون آخر" كما نص على ذلك عليش في منح الجليل.[8]

وقد توسع المتأخرون في دلالة مصطلح المذهب وقرروا أنه إذا أطلق أفاد معنيين اثنين هما:

الأول: ما به الفتوى من إطلاق الشيء على جزئه الأهم كالحج عرفة؛ لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد.

الثاني: المراد بمذهبه ما قاله هو وأصحابه على طريقته ونسب إليه مذهبا لكونه يجري على قواعده وأصله الذي بني عليه مذهبه، وليس المراد ما ذهب إليه وحده دون غيره من أهل مذهبه.[9]

وفي الدراية للغبريني: "أن أقوال المتأخرين كابن بشير وأضرابه تنسب أقوالا في المذهب؛ لأنها إنما خرجت وبنيت على أصول مذهب مالك وطريقته والمفتي به إنما أفتى على مذهبه، فيصح أن تضاف هذه الأقوال إلى المذهب وتعد منه".[10]

وقد صرح خليل في مقدمة مختصره ضمنيا أن المقصود بمذهب مالك أقواله وأقوال أصحابه وآرؤهم التي خرجت على أصوله إذا كانت معتمدة في الفتوى في قوله المتقدم آنفا.[11]

---

6. أبو العباس شهاب الدين القرافي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ج1، بدون ت ط ، 195.
7. أحمد بن غنيم النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة بن أبي زيد القيرواني، ج1(بيروت دار الفكر ، ط. 1995م) 24.
8. أبوعبد الله محمد بن أحمد عليش، منح الجليل شرح مختصر خليل / ج.1 (بدون ط ت 1989/)، 39.
9. علي بن أحمد الصعيدي العدوي على شرح الخرشي لمختصر خليل ، ج. 1، (دار الفطر بدون ط ت)، 35
10. أبوالعباس أحمد بن عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيما عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية،ج.1، تحقيق عادل نويهض (بيروت: دار الآفاق الجديدة بدون ت ط)،101
11. خليل بن إسحاق، مختصر خليل، 8.

وقد حاول المتأخرون أن يقدموا ضوابط منهجية محددة لما يمكن نسبته إلى المذهب من غير أقوال إمامه فاشترط الإمام ابن عرفة في نسبة الأقوال إلى المذهب المعرفة الفائقة للأحكام، والقدرة على استخراج الفروع مع المعرفة الكاملة بأصول إمام المذهب وقواعده. ففي مواهب الجليل عند شرح عبارة المختصر"وبالتردد لتردد المتأخرين في النقل" سئل ابن عرفة هل يجوز أن يقال في طريق من الطرق هذا مذهب مالك فأجاب بأن من له معرفة بقواعد المذهب ومشهور أقواله والترجيح والقياس يجوز له ذلك بعد بذل وسعه في تذكر قواعد المذهب، ومن لم يكن كذلك لا يجوز له ذلك إلا أن يعزوه إلى من قاله قبله كالمازري وابن رشد وغيرهم نقل ذلك عنه البرزلي في أوائل كتابه.[12]

ومهما يكن فالذي عليه المتأخرون أن مصطلح المذهب يطلق على: اجتهادات الإمام نفسه وما خرج على أصوله وقواعده من طرف أئمة المذهب الراسخين في الفقه وأصوله.

ثالثا: ترجيح المذهب، وثناء العلماء عليه:

وأما ترجيح مذهب مالك في الجملة على غيره فقد نص عليه غير واحد من العلماء كالقاضي عياض في ترتيب المدارك بقوله: "اعلموا وفقكم الله تعالى أن ترجيح مذهب مالك على غيره وإنافة منزلته في العلم وسمو قدره من طريق النقل والأثر لا ينكره إلا معاند أو قاصر لم يبلغه ذلك مع اشتهاره في كتب المخالف والمساعد، وها نحن نقرر الكلام في ذلك في حجتين أولاهما بالتقديم وهو الأثر المشهور الصحيح المروي في ذلك عن رسول الله عليه السلام من حديث الثقات، منهم سفيان بن عيينة عن أبي جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، وفي رواية يلتمسون العلم فلايجدون عالماً أعلم، وفي رواية من عالم المدينة.[13]

وعضد ترجيح المذهب من جهة الاعتبار والنظر.

12. الحطاب مواهب الجليل، ج1، 39
13. أبو الفضل القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب السالك، ج. 1، تحقيق ابن تاويت الطنجي وآخرون (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية ، ط. 1، 1970م) ، 68.

وفي سير أعلام النبلاء للذهبي: "فإلى فقه مالك المنتهى، فعامة آرائه مسددة، ولو لم يكن له إلا حسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد لكفاه، ومذهبه قد ملأ المغرب والأندلس، وكثيرا من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن، والسودان، وبالبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان"[14]

وروي عن الأوزاعي: أنه كان إذا ذكر مالكا، يقول: عالم العلماء، ومفتي الحرمين.

وقال أبو يوسف: ما رأيت أعلم من أبي حنيفة، ومالك، وابن أبي ليلى.

وذكر أحمد بن حنبل مالكا، فقدمه على الأوزاعي، والثوري، والليث، وحماد، والحكم، في العلم.

وقال: هو إمام في الحديث، وفي الفقه.

وقال القطان: هو إمام يقتدى به.

وقال ابن معين: مالك من حجج الله على خلقه.

وقال أسد بن الفرات: إذا أردت الله والدار الآخرة، فعليك بمالك.[15]

وبهذه الجولة السريعة مع فقه الإمام ومذهبه أسلمنا البحث إلى الحديث عن أصول مالك رضي الله عنه.

المحور الثالث: المنهج الأُصولي لفقه الإمام مالك:

يتميز المنهج الأصولي عند الإمام مالك بثراء الأصول وتنوعها، وكثرة القواعد ودقتها، ووفرة المصادر وإحكامها، وجودةالنظر في الأحكام ومآلاتها، واستحضار عمومات الشريعة ومقاصدها، فكان منهجا حيويا جامعا بين مختلف المقومات العلمية الكفيلة باستثمار مختلف الأصول النقلية والعقلية للإجابة على النوازل الحادثة، والوقائع الطارئة في مشارق الأرض ومغاربها، فجاءت اجتهاداته في أغلبها الأعم مسددة، وآراؤه محكمة يشهد بذلك كل من خبر المذهب وشم عبير رائحة الفقه المالكي وما تضمنه من مرونة في الأحكام وعمل بالمصالح والمقاصد، وما اشتمل عليه من سد الذرائع وإغلاق وسائل المفاسد، فكان بذلك المذهب الأهدى سبيلا والأقوم في مجال النظر والاستنباط قيلا.

ففي المدارك للقاضي عياض: "إن ترتيب الاجتهاد على ما يوجب العقل ويشهد له الشرع: تقديم كتاب الله عز وجل على ترتيب أدلته في الوضوح من تقديم نصوصه ثم ظواهره ثم مفهوماته، ثم كذلك السنة على ترتيب متواترها ومشهورها وآحادها ثم ترتيب نصوصها وظواهرها ومفهوماتها ثم الإجماع عند عدم الكتاب وتواتر السنة، وعند عدم هذه الأصول كلها القياس عليها والاستنباط منها.." .[16]

14. أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج. 8، (القاهرة: دار الحديث بدون ط ت 2007م) ، 92.
15. نفسه، ج. 8، 94.
16. عياض ترتيب المدارك ، ج. 1، 88.

ويمكن تلخيص الأصول التي نحا إليه إمامنا مالك فيما يلي:

- **الأصول النقلية.**
- **الأصول العقلية.**
- **النظر المقاصدي.**

ويختلف أهل المذهب في عدد الأصول التي بنى عليها الإمام مذهبه فمنهم المقتصد ومنهم المكثر، ومنهم من توسط بين ذاك وذاك، فنقل عن بعضهم أنها عشرة وعن بعض آخر أنها خمسة وعن آخرين أنها عشرون، وأبعد آخرون النجعة فقالوا أصول ملك تبلغ خمسمائة أصل؛ قال ابن العربي: "فأصول الأحكام خمسة: منها أربعة متفق عليها من الأمة: الكتاب والسنة، والإجماع، والنظر، والاجتهاد فهذه الأربعة والمصلحة وهو الأصل الخامس الذي انفرد به مالك رضي الله عنه دونهم ولقد وفق فيما بينهم".[17]

والقول الذي تطمئن إليه النفس ما نقله التسولي في البهجة عن عالم فاس الشهير أبي صالح محمد الهسكوري من أنها: "نص الكتاب العزيز: وظاهره وهو العموم، ودليله وهو مفهوم المخالفة، ومفهومه وهو باب آخر والمراد به مفهوم الموافقة، وتنبيهه وهو التنبيه على العلة، ومن السنة أيضا مثل هذه الخمسة فهذه عشرة.

والحادي عشر الإجماع، والثاني عشر القياس، والثالث عشر عمل أهل المدينة، والرابع عشر قول الصحابي، والخامس عشر الاستحسان، والسادس عشر الحكم بسد الذرائع، واختلف عنه في السابع عشر وهو مراعاة الخلاف: فمرة يراعيه ومرة لا يراعيه قال أبو الحسن ومن ذلك الاستصحاب".[18]

وهذا الذي ذهب إليه الشيخ أبو صالح هو الذي اختاره الشيخ: محمد يحيى الولاتي في كتابه إيصال السالك إلى مذهب الإمام مالك.[19]

ولْنفصل القول في هذه الأصول:

1- النص في اللغة الرفع، ومنه منصة العروس لارتفاعها وفي الاصطلاح: "النص هو اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره أصلا كأسماء الأعداد".[20]

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.[21]

---

17. أبوبكر بن العربي القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، ج. 1، تحقيق محمد عبد الله كريم (بيروت: دار الغرب الإسلامي بدون ت ط) ، 683.
18. أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي، البهجة في شرح التحفة، ج. 2، تحقيق محمد عبد القادر شاهين (بيروت: دار الكب العلمية، ط1، 1989م)، 219.
19. محمد يحي الولاتي، إيصال السالك إلى أصول مذهب الإمام مالك، (بيروت: دار ابن حزم، ط. 1، 2015م)، 16.
20. شهاب الدين القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج. 1، 36.
21. –سورة البقرة: 196.

ومثاله من السنة "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ".[22]

2- الظاهر: مشتق من الظهور، والمقصود به اللفظ الدال في محل النطق على معنى لكنه يحتمل غيره احتمالا مرجوحا، ودلالته على المعنى المرجوح تسمى تأويلا، ومما تجدر الإشارة إليه أنه يدخل تحت مدلول الظاهر: الأوامر والنواهي ، والعام وبعضم يلحق به دلالة المطلق.[23]

ومثاله من القرآن الكريم: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾.[24]

3- مفهوم المخالفة، وهو المسمى بدليل الخطاب ويجري في الشرط والغاية والحصر والعدد والعلة والوصف والظرف ومثاله في الشرط من القرآن: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[25]

فمفهومه أن غير أولات الحمل من المطلقات البوائن لا نفقة لهن، ومثاله من السنة: "مَنِ ابْتَاعَ طَعَامًا، فَلاَ يَبِعْهُ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ"[26] فدل الحديث بمفهوم المخالفة أن من اشترى طعاما لا يجوز له بيعه حتى يستوفي قبضه.

4- تنبيه الخطاب: وهو مفهوم الموافقة وحده دلالة اللفظ على معنى غير مذكور موافق للمعنى المذكور في الحكم بالمساواة له فيه أو الأولوية، ويسمى فحو الخطاب، ومثال المساوي من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.[27]

فالآية تدل بالمنطوق على تحريم أكل أموال اليتامى وتدل بالمفهوم الموافقة على مساواة إحراقه لأكله ظلما فالعلة في التحريم الإتلاف، ولا فرق في ذلك بين الأكل والحرق .[28]

وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق، ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَل أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾.[29]

فالآية تدل بمنطوقها على تحريم التأفيف على الوالدين، وتدل بالمفهوم الموافق على أن ضربهما أولى بالتحريم إذ العلة في ذلك مطلق الإيذاء.

---

22. أخرجه البخاري في صحيحه، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم الحديث: 2408.
23. الولاتي، متن إيصال السالك، 19.
24. -سورة المجادلة: 4.
25. -سورة الطلاق: 6.
26. أخرجه البخاري في صحيحه، باب الكيل على البائع والمعطي ، رقم الحديث: 2126.
27. -سورة النساء: 10.
28. أبوعبد الله التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق محمد علي فركوس (مكة المكرمة: مؤسسة الريان، ط1. 1998م)، 552.
29. -سورة الإسراء: 23.

5- دلالة التنبيه: وتسمى بدلالة الإيماء، وهي: "أن يقترن الوصف بحكم لو لم يكن ذلك الوصف علة للحكم لعابه الفطن بمقاصد الكلام؛ لأنه لا يليق بالفصاحة".[30] ومثاله من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[31]

وهنا اكتملت العشرة الأولى من أصول مالك المتعلقة بالكتاب أو السنة.

11- الإجماع: لعل مالكا أكثر الأئمة الأربعة ذكرا للإجماع واحتجاجا به والموطأ خير شاهد على ذلك، والمقصود به اتفاق العلماء المجتهدين من هذه الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في أي عصر أي سواء كان في عصر الصحابة أم لا، ولا ينعقد مع مخالفة إمام معتبر كابن عباس من الصحابة، والزهري من التابعين، والأوزاعي من تابعي التابعين، ولا بد له من مستند من كتاب أو سنة أو قياس.[32]

12- القياس: وهو لغة: التقدير والتسوية، وفي الاصطلاح حمل معلوم على معلوم لمساواته له في علة الحكم عند الحامل وأركانه أربعة: الأصل المقيس عليه، والحكم، ، والفرع وهو محل الحكم، والعلة الجامعة بينهما.[33] وفي كتب أهل المذهب كلام يطول في تقديمه على خبر الواحد عند مالك أو العكس.

13- عمل أهل المدينة، والمرادبهم الصحابة والتابعون لكن بشرط أن يكون مما لا مجال للرأي فيه من الأحكام الشرعية وقيل إن عملهم حجة مطلقا، ونص ابن العربي في القبس على: "أن عمل المدينة فيما طريقه النقل أصل لا يزعزع".[34] "والمقصود بالنقلي نقلهم تعيين مكان المنبر والقبر ومحل وقوفه للصلاة عليه السلام، ونقلهم للأعيان كمقدار المد والصاع وأوقية الفضة، وقد احتج به مالك على أبي يوسف في حضرة الرشيد فرجع عن قول إمامه إلى قول مالك".[35] وأما ما نقل من طريق الآحاد، أو ما أدركوه بالاجتهاد فمحل بحث طويل وخلاف بين أهل المذهب.

14- قول الصحابي أصل من أصول مالك رضي الله عنه لكن بشرط صحة السند، وكونه من أعلام الصحابة، كالخلفاء الراشدين أو معاذ بن جبل، وعدم مخالفته للحديث المرفوع الصالح للحجية، والمراد بقول الصحابي رأيه الصادر عن اجتهاد، ومعنى كونه حجة أن المجتهد التابعي وغيره إلى هلم جرا يجب عليه اتباعه ولا يجوز له مخالفته وأما المجتهد الصحابي فليس حجة على غيره من الصحابة.[36]

30. سيدي عبد الله الشنفيطي، نشر البنود ، 1. (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية بدون ت ط) 95.
31. سورة المائدة: 38.
32. الولاتي، إيصال السالك، 57.
33. نفسه، 66- 67- 68.
34. ابن العربي، القبس، ج. 1، 203.
35. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج. 1، (بيروت المكتبة العصرية ط. 1، 2006م) ، 319.
36. الولاتي، إيصال السالك، 57، وينظر نسر البنود على مراقي السعود، 1. (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية بدون ت ط) 236.

15- الاستحسان: والمقصود به عند المالكية اتباع الراجح من الأدلة، قال الباجي: "هو القول بأقوى الدليلين، وعلى هذا يكون حجة إجماعاً".[37] وذكر ابن العربي: "أن الاستحسان في أغلب معانيه عن مالك هو تخصيص للعام أو القياس بالمصلحة".[38]

"وقد استحسن مالك بنفسه خمس مسائل لم يسبقه إليها غيره وهي: ثبوت الشفعة في بيع الثمار، ولم يجر عمل فاس إلا في ثمار الخريف دون المصيف ، وثبوت الشفعة في أنقاض أرض الحبس، وأرض العارية، والقصاص بالشاهد واليمين، وتقدير دية أنملة الإبهام بخمس من الإبل، وإيصاء المرأة على ولدها المهمل إن كان المال نحو ستين دينارا".[39]

وأما القول بالاستحسان فيما سبق إليه فكثير جدا كتضمين الصناع، والراعي المشترك، والأكرياء الحاملين للطعام والشراب، وكان طرد القياس يقتضي أمانتهم؛ لكن الضرورة والمصلحة العامة تقتضي تضمينهم لحفظ أموال الناس وما يرافق ذلك من ضرورة التعامل معهم، وقد قال الخلفاء الراشدون بتضمينهم رعيا للمصالح المرسلة.[40]

16- سد الذرائع، والمقصود به سد أبواب الوسائل المفضية إلى الفساد.

وقد انعقد الإجماع على أن وسائل الفسادعلى ثلاثة أقسام:

- المتفق على منعه كسب الصنم عند من يعبده، وكحفر الآبار في طريق المسلمين وإلقاء السم في أطعمتهم.
- المتفق على جوازه كغرس الكروم مع أنها تثمر العنب والعنب وسيلة إلى عصر الخمر.
- القسم المختلف فيه لم يمنعه إلا مالك، كبيوع الآجال، وذلك من باب اعتبار المآل.

وساق ابن العربي في كتاب البيوع من القبس نصا أبدى فيه العجب وساق فيه جملة أصول البيع ، وذكر منها سد الذرائع فقال: "وأما المعنى فإن مالكا زاد في الأصول مراعاة الشبهة وهي التي يسميها أصحابنا الذرائع وهو الأصل الخامس، والثاني وهو السادس المصلحة، وهو في كل معنى قام به قانون الشريعة وحصلت به المنفعة العامة في الخليقة ولم يساعده على هذين الأصلين أحد من العلماء وهو في القول بهما أقوم قيلا وأهدى سبيلا".[41]

37. شهاب الدين القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج. 1، 451.
38. أبوبكربن العربي، أحكام الفرآن، ج. 2، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 3، 2003م) 278- 279.
39. الحجوي الثعالبي، الفكر السامي،ج. 1، 317.
40. نفسه ، ج. 1، 317- 318.
41. ابن العربي، القبس، ج. 1، 779.

17 – مراعاة الخلاف: ولم ينضبط مراعاته له في كل حال فمرة يراعيه ومرة لا يراعيه وضابط ذلك عنده أنه إذا قوي دليل المُخالف روعي له حظّه من الاعتبار، كالنكاح الفاسد المختلف فيه: يفسخه بطلاق وصداق ويلحق الولد المتكون منه، وإذا كان ضعيف المدرك لم يلتفت إليه كتزوج الخامسة.

ويرى الحجوي الثعالبي أن مراعاة الخلاف من الاستحسان فليس بزائد عليه ، ولكن بعض العلماء فرق بينهما بأن الاستحسان الأخذ بأقوى الدليلين ومراعاة الخلاف أخذ بهما معا من بعض الوجوه.

ومن مراعاة الخلاف نشأ القول بالاستصحاب، وهو على ضربين:

- استصحاب العدم الأصلي ، وهو البراءة الأصلية، والمقصود به انتفاء الأحكام الشرعية في حقنا حتى يدل دليل على ثبوتها، وقد خالف في هذا الأصل من المالكية الأبهري وطائفة.
- استصحاب ما دل الشرع على ثبوته بوجوده وهو المقصود بقول الفقهاء: (الأصل إبقاء ماكان على ماكان).

خاتمة

بعد هذه الجولة الممتعة مع الإمام مالك وفقهه وأصوله نكون قد توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- اضطراب أهل المذهب في استقراء عدد الأصول التي يعتمد عليها وذلك راجع إلى أمرين:

أ- كثرة الأصول التي اعتمد عليها الإمام مالك وتشعبها، لسعة علمه بالتفسير والحديث والفقه والأصول مما جعل استقراء تلك الأصول التي اعتمد عليها من الصعوبة بمكان.

ب- أن من أجمل الأصول المتعلقة بالاستدلال وأرجعها إلى الاجتهاد اختصر، ومن فصل في الاستدلال توسع فعدها أكثر من غيره.

2- أن المنهج العلمي الرصين يقتضي التفريق بين ما قاله الإمام بنفسه وما خرج أصحابه وتلامذته على أصوله.

3- تطور دلالة مصطلح المذهب وإطلاقها على جميع الفروع والأحكام المخرجة على قواعد إمام المذهب وأصوله إذا كان القائل بها ممن له القدرة على ذلك.

والموضوع وإن كانت متشعبةً فروعه، ممتدّةً أغصانُهُ، لا يكفي أن يلمع إلى مختلف مسائله في هذه العجالة، وإنما هو حري بمشروع ضخم تستقرأ فيه الدواوين الكبرى وشروحها، واستخلاص أُصول المذهب منها.

وحسبنا في هذه العجالة أن نحظى بشرف الحديث عن إمام دار الهجرة.

لائحة المصادر والمراجع الخاصة:

- أبوبكر بن العربي، القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، ج. 1، تحقيق محمد عبد الله كريم (بيروت: دار الغرب الإسلامي بدون ت ط) .
- أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي، البهجة في شرح التحفة، ج. 2، تحقيق محمد عبد القادر شاهين (بيروت: دار الكب العلمية، ط1، 1989م).
- أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيما عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية،ج.1، تحقيق عادل نويهض (بيروت: دار الآفاق الجديدة بدون ت ط).
- أبو العباس شهاب الدين القرافي ، الذحيرة، ج1 (بيروت دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1994م)
- أبو العباس شهاب الدين القرافي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ج1، بدون ت ط.
- أبوعبد الله التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق محمد علي فركوس (مكة المكرمة: مؤسسة الريان، ط،1. 1998م).
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج. 8، (القاهرة: دار الحديث بدون ط ت 2007م) .
- أبوعبد الله محمد بن أحمد عليش، منح الجليل شرح مختصر خليل / ج.1 (بدون ط ت 1989/).
- أبوعبد الله محمد بن محمد الطرابلسي، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ج. ، 1(دار الفكر، ط. 1992م) .
- أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب السالك، ج.2، تحقيق ابن تاويت الطنجي وآخرون (المغرب: دارا فضالة، ط.1، 1983م).
- أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس.
- أبو المودة، خليل بن إسحاق المالكي، مختصر خليل، ج.1، (القاهرة دار الحديث، ط.1، 2005م).
- أبو الوليد بن رشد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، ج. 1، تحقيق محمد حجي وآخرون (بيروت: دار الغربي الإسلامي، ط. 2، 1988م).
- أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة،1 (بيروت: دار الجيل ، ط. 1، 2005م).

- أحمد بن غنيم النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة بن أبي زيد القيرواني، ج1(بيروت دار الفكر ، ط. 1995م).
- عبد الله الشنفيطي، نشر البنود. (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية بدون ت ط).
- علي بن أحمد الصعيدي العدوي على شرح الخرشي لمختصر خليل ، ج. 1، (دار الفطر بدون ط ت).
- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج. 1، (بيروت المكتبة العصرية ط. 1، 2006م).
- محمد يحي الولاتي، إيصال السالك إلى أصول مذهب الإمام مالك، (بيروت: دار ابن حزم، ط. 1، 2015م).

لطائف العلوم في مصايف النجوم

د. فهد الميموني

الحمد لله ذي الكمال والجلال، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى الصحب والآل، وتابعيهم بإحسان إلى يوم المآل.

عزيزي طالب العلم

اركب معنا في رحلة علمية نسكشف خلالها ستّ محطات مع ستة علماء أكابر، وتذكرة رحلتنا تحت عنوان (لطائف العلوم في مصايف النجوم).

وقبل الانطلاق نستفتحها بفائدتين:

الفائدة الأولى: كلمة "مصايف" لفظة فصيحة أصيلة في لسان العرب، واستخدمها العرب للدلالة على جموع الصيف المتواردة على الأمكنة، وكذا على أحوال تقع في الصيف.

ومن ذلك قول النابغة الذبياني المتوفى 18 قبل الهجرة:

فمجتمع الأشراج غيّر رسمـها مصـايف مرت بعـدها ومرابع
وقـال لبيد بن ربيعة العامري رضي الله عـنه في معـلّقـتـه
ورمى دوابرها السفا وتهيجت ريح المصايف سومها وسهامها

وقال الطرماح بن حكيم الطائي (ت125هـ):

أهاجك بالملا دمن عـوافي كخطّ الكفّ بالآي العجاف
تعاورهنّ بعد مضيّ حول مصـايف جـلّها بـرد وسـافي

الفائدة الثانية: قال تعالى (فإذا فرغت فانصب). هذه الآية ضابطة لزمان طالب العلم، ومنبّهة له متى ما ركنت نفسه إلى تقطيع الوقت هدرا في سفاسف الأمور، كيف ذلك؟

معلوم أن أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم مطلع (اقرأ) ثم مطلع سورة القلم، ثم المزمل/المدثر/ تبت/ الشمس/ سبح/ الليل/ ثم والفجر، ثم فتر الوحي لأيام فنزلت سورتا والضحى وألم نشرح.

فالملحظ الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقيام الليل وليس معه من القرآن إلا العلق والقلم ومطلع المزمل، وفيه إشارة إلى تصحيح ما يظنه بعض طلبة العلم أنهم غير مخاطبين بقيام الليل واستغلال السمر فيه بالعلم إلا إذا كانت بحوزتهم محفوظات كثيرة.
-الملحظ الثاني، نزول (فإذا فرغت فانصب) بعد إبطاء الوحي، فيه دلالة على استغلال طالب العلم وقته كلّه، وإن لم يستزد فليذاكر ما قد تعلمه.

لنبدأ رحلتنا

1. مع صيف البصرة بصحبة نجم النحو (أبي الأسود الدؤلي ت69هـ). دخل أبو الأسود الدؤلي بيته وكان الزمان صيفا وقيظا شديدا، فسمع بنته قائلة:
يا أبت ما أشدّ الحرّ؟ فقال لها: (ناجر) أي صفر.
فقالت: إنما تعجبت ولم أستفهمك؟
فقال: قولي: ما أشدّ الحرّ، فخرج فزعا إلى علي رضي الله عنه، فأملى عليه عليّ الباكورة الأولى للنحو وهي تشابه: مطلع المقدمة الآجرومية.
وإلى ذلك أشار شعبان الآثاري (ت828هـ) في ألفيته إذ يقول:

أول من أفادنا النحو علي *** سببه لحن حكاه الدؤلي
عن بنته التي نوت تعجّبا *** فاستفهمت برفع فعلها أبي
وقال قولي: ما أشد الحر *** بالنصب في الدّال الثقيل والرّا
فاستنكرت مقالة أباها *** واستخبرت عن أصلها أباها
فقام في الوقت إلى الإمام *** وارث علم سيد الأنام
فقال عندي يا إمام من لحن *** واللحن في أبنائنا من المحن

وبربط هذه القصة بعصرنا ينبغي تصحيح اللحن لأبنائنا في اللغات التي يتحدثون بها.

2. مع صيف مكة مع نجم الحديث والفقه (القعنبي ت 221هـ).
عبد الله بن مسلمة بن قعنب أبو عبد الرّحمن الحارثيّ، نزيل مكّة.

روى: عبد الله بن محمّد بن جعفر القزوينيّ عن الميمونيّ، سمعت القعنبيّ يقول: اختلفت إلى مالك ثلاثين سنة، ما من حديث في (الموطّأ) إلاّ لو شئت قلت: سمعته مرارا، ولذلك كان جمع من المحدثين يقدمون رواية القعنبي للموطأ على سائر الروايات، كرواية الليثي والتميمي، ومعن بن عيسى، وأبي مصعب الزهري، ومحمد بن الحسن.

ولنقف على قصة وقعت في الصيف، نستنبط منها كيف كان العلماء يصبرون على استغلال ساعات اليوم كلّها في مجالس العلم.

قال أبو حاتم الرازي: سألناه أن يقرأ علينا (الموطّأ) ، فقال: تعالوا بالغداة. فقلنا: لنا مجلس عند حجّاج بن منهال. قال: فإذا فرغتم منه؟

قلنا: نأتي حينئذ مسلم بن إبراهيم. قال: فإذا فرغتم؟ قلنا: نأتي أبا حذيفة النّهديّ.

قال: فبعد العصر؟ قلنا: نأتي عارما أبا النّعمان. قال: فبعد المغرب؟// فكان يأتينا باللّيل، فيخرج علينا وعليه كبل ما تحته شيء/ في الصّيف، فكان يقرأ علينا في الحرّ الشّديد حينئذ.

وأولئك العلماء قد اقتدوا بالمعلم الأعظم ذي الرحمة والموعظة الحسنة حينما ينتهز الفرصة أحيانا ليعلم صحابته.

فقد أخرج مسلم عن علباء بن أحمر عن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاريّ قال: صلّى بنا رسول اللّه ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتّى حضرت الظّهر، فنزل فصلّى. ثمّ صعد المنبر حتّى حضرت العصر، ثمّ نزل فصلّى، ثمّ صعد المنبر حتى غربت الشّمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا.

وبربط هذا بعصرنا الراهن، نلحظ أن الأساس الأول في العلم هو الحفظ، وقد قرره كثير من العلماء والفلاسفة، قديما وحديثا، مع أن ما لوحظ عند بعضنا هو عدم الاكتراث بالحفظ في قضية التعلّم.

3. ومع صيف خراسان، مع نجم علل الحديث (محمد بن يحيى الذهلي ت258هـ).

ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه

عن علي محمد بن أحمد بن زيد المعدّل، يقول: سمعت أبا زكريا يحيى ابن محمد بن يحيى، يقول: دخلت على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيت كتبه وبين يديه السراج، وهو يصنف، فقلت: يا أبت هذا وقت الصلاة ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نفست عن نفسك؟ فقال لي: يا بني، تقول لي هذا وأنا مع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه والتابعين؟

ومثل هذا الوله بالكتاب وتفضيله على الأصحاب، ذكره الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن أبي جعفر أحمد بن محمّد بن سلامة الطّحاويّ ، قال أحمد بن أبي عمران ، قال : كنت عند أبي أيّوب أحمد بن محمّد بن شجاع وقد تخلّف في منزله فبعث غلاما من غلمانه إلى أبي عبد اللّه بن الأعرابيّ صاحب الغريب يسأله المجيء إليه ، فعاد إليه

الغلام فقال : قد سألته ذلك فقال لي : عندي قوم من الأعراب فإذا قضيت أربي منهم أتيت، قال الغلام : وما رأيت عنده أحدا إلّا أنّ بين يديه كتبا فينظر في هذا مرّة وفي هذا مرّة، ثمّ ما شعرنا حتّى جاء فقال له أبو أيّوب : يا أبا عبد اللّه، سبحان اللّه العظيم ، تخلّفت عنّا وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام إنّه ما رأى عندك أحدا، وقلت : أنا مع قوم من الأعراب، فقال ابن الأعرابيّ: منشدا:

لنا جلساء ما نملّ حديثهم
ألبّاء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
وعقلا وتأديبا ورأيا مسدّدا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة
ولا يتّقى منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت أموات فلا أنت كاذب
وإن قلت أحياء فلست مفنّدا

فما قيمة الكتب عندك يا عزيزي طالب العلم؟

4. ومع (صيف ماشهران) مع نجم الحفّاظ (أبي زرعة الرازي ت 264هـ).

هذه قصة وقت في الصيف في سوق قرية ماشهران بالريّ

قال أبو جعفر محمّد بن عليّ، ورّاق أبي زرعة: حضرنا أبا زرعة بماشهران، وعنده أبو حاتم، وابن وارة، والمنذر بن شاذان، وغيرهم، فذكروا حديث التّلقين: (لقّنوا موتاكم: لا إله إلاّ الله واستحيوا من أبي زرعة أن يلقّنوه، فقالوا: تعالوا نذكر الحديث.

فقال ابن وارة: حدّثنا أبو عاصم، حدّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، وجعل يقول: ابن أبي، ولم يجاوزه.

وقال أبو حاتم: حدّثنا بندار، حدّثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة:

حدّثنا بندار، حدّثنا أبو عاصم، حدّثنا عبد الحميد، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرّة، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله -صلّى اللّه عليه وسلّم-: (من كان آخر كلامه: لا إله إلاّ الله، دخل الجنّة، وتوفّي –لحظتئذ رحمه الله.

5. مع صيف بغداد مع نجم أهل السلوك (أبي قبيصة محمد بن عبد الرحمن الضّبي ت282هـ).

روى الخطيب، عن الحسن بن أبي طالب، عن يوسف القوّاس: حدّثنا إسماعيل الخطبيّ: سألت أبا قبيصة الضّبّيّ - وكان من أدرس من رأيناه للقرآن - عن أكثر ما قرأ في يوم - وكان يوصف بسرعة القراءة - فامتنع أن يخبرني، فلم أزل به حتّى قال:
قرأت في يوم من أيّام الصّيف أربع ختمات، وبلغت في الخامسة إلى {براءة}، وأذنت العصر. قال: وكان من أهل الصّدق.

وهذا عزيزي طالب العلم هو من أشباه المستحيلات في عصرنا، لكن عند الذين بلغوا مقام البركات في الوقت هو شيء ممكن وسائغ، فقد أخرج عبد الرزاق في مصنفه أن عثمان يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة يحيي بها ليله، وثبت ذلك عن سعيد بن جبير وغيره.

6. ومع (صيف بسكرة) في الجزائر مع نجم القراءات (يوسف بن جبارة الهذلي ت465هـ).
حسب معطيات رحلة ابن جبارة فإنها انطلقت في صيف سنة 425هـ مثل عدد من الرحلات من أشهرها رحلة ابن بطوطة، وليس في التاريخ الإسلامي أطول من رحلة ابن جبارة في طلب العلم حيث استغرق فيها أربعين عاما.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام:

يوسف بن عليّ بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سوادة، أبو القاسم الهذليّ المقرئ البسكريّ، أحد الجوّالين في الدّنيا في طلب القراءات، لا أعلم أحدا رحل في طلب القراءات بل ولا الحديث أوسع من رحلته فإنّه رحل من أقصى المغرب إلى أن انتهى إلى مدينة فرغانة.

والسؤال المطروح:

طالب العلم لو لم يستغل زمانه كلّه ماذا سيقع؟ الجواب نجده في هذه القصة التي حكاها ابن الجوزي في كتابه الأذكياء عن سهل بن محمّد السجستاني قال وفد علينا عامل من أهل الكوفة لم أر في عمّال السّلطان بالبصرة أبرع منه، فدخلت مسلما عليه، فقال يا سجستاني من أعلمكم بالبصرة؟ قلت: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي.

والمازني أعلمنا بالنحو.

وهلال الرّأي أفقهنا.

والشاذكوني أعلمنا بالحديث.

وأنا رحمك الله أنسب إلى علم القرآن.

وابن الكلبيّ من أكتبنا للشروط.

قال فقال لكاتبه إذا كان غد فاجمعهم إليّ. قال فجمعنا. قال أيّكم المازني قال أبو عثمان ها أنذا يرحمك الله، قال: هل يجزى في كفارة الظهار عتق عبد أعور؟ فقال المازني لست صاحب فقه أنا صاحب عربيّة.

فقال يا زيادي كيف تكتب بين بعل وامرأة خالعها زوجها على الثّلث من صداقها؟ قال ليس هذا من علمي هذا من علم هلال الرّأي. قال يا هلال كم أسند ابن عون عن الحسن؟ قال ليس هذا من علمي هذا من علم الشاذكوني قال يا شاذكوني من قرأ ألا إنهم تثنوني صدورهم؟ قال ليس هذا من علمي هذا من علم أبي حاتم. فقال يا أبا حاتم كيف تكتب كتابا إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة وما أصابهم في الثّمرة وتسأله لهم

النّظر بالبصرة قال لست رحمك الله صاحب بدعة وكتابة أنا صاحب قرآن. قال: (ما أقبح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلّا فنّا واحدا حتّى إذا سئل عن غيره لم يجل فيه ولم يمر، لكن عالمنا بالكوفة الكسائيّ لو سئل عن هذا كله لأجاب).

• وأختم بقصيدة من بحر الوافر في موضوع مصايف العلماء أقول فيها:

وعـــاة العلـم يؤنسـها المصايـف ... كـطيب العــود تـوقده المهايف
نوابــغ تصطــلي بلــهيب حــرّ ... وتـخرجه شـذا بعـرى المعـــارف
وكم صـــبروا عــلى الـلّأواء دوما ... أزاحوا الـجهل وانقضــت المخاوف
وكم رحلـــوا إلى الأقطــار بــحثا ... عن التّـنقــيح للنّظر الـــمخالف
إذا ظفــروا بنـــادر سانـــحـات ... أعادوا قيــدها درر الصّحـــائف
فســـر بـخطـاهم لا تأل جهــدا ... كـما الــخرّيت إثر خــطاه قائف
وكن (فإذا فرغت) انصب، وحـدّث ... (بنعمة ربّك) الـــحسـنى تصادف
متى ركــن الــحصيــف إلى فراغ ... يصـــاب بنــائبــات أو تــوالـــف
فصــن فتــرات صيـفك عن ضـياع ... ودع هــفوات قومـك بالسّـوالــف
وأمّـــا (النّتّ) فاســتفدنّ عـلـما ... حـــذار شبــاكـها فهـي الـــهواتف
ودن وطــنا ولاءك مســتقــيـمـــا ... تكن عنـد الــورى نعـم الـــخلائف

الخاتمة

وفي ختام هذه الورقات، نؤكِّدُ الدعوة لطلاب العلم وعموم الباحثين إلى ضرورة استثمار أوقات إجازاتهم فيما يعود عليهم بالنفع والفائدة، والاقتداء بمسالك العلماء في ذلك. مع ضرورة استحضار المتغيِّرات الطارئة في زمننا، والمستجدات الواقعة في بيئاتنا، وذلك بالحرص على تنظيم الوقت بإعطاء كلّ ذي حق حقَّه، فيُخصُّ وقت للراحة، ووقت للهواية، ووقت لتدريب الذهن وترويضه، ووقت للأقارب والعائلة، وبذلك يمكن للطالب العودة إلى صفوف الفصل وللباحث الرجوع ميادين البحث في حال من النشاط الذهني والبدني والروحي، وينعكس بالتالي ذلك على تحصيله وأدائه.

الطبعة الأولى
1442هـ-2021م

حقوق الطبع محفوظة
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
الإمارات العربية المتحدة